الإنسانية والعدالة

في الإسلام

تأليف

محمود عبد الحميد السيد

رئيس النيابة العامة

١٩٧٩

الإنسانية والعدالة

في الإسلام

تأليف

محمود عبد الحميد السيد
رئيس النيابة العامة

١٩٧٩

إهـــداء

إلى والدي ومرشدي ومعلمي اهدي هذا الكتاب مع عظيم آيات الود والعرفان داعياً الله أن يجعلنا للإسلام أنصاراً وللحق أتباعا وللانسانية والعدالة خدماً وجنوداً .

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين

المقـــــدمة

لقد جاء الإسلام فنظر للانسان نظرة اعلى من قدره وتمنع كل مايؤدى إلى إذلاله وتحقيره واهانته أو الانتقاص من كرامته وحريته أو اكراهه فى دينه جاء الانسان فى كل زمان ومكان فكان الانسان هو وسيلة كل المثل وغاية كل المبادىء والمطالب الأسمى من الحياة ودليل ذلك قول الله تعالى فى القرآن الكريم (يايها الناس) نحو ثمانى وعشرين مرة ، كما ورد لفظ الناس مائتين وتسعة وأربعين مرة ولفظ الانسان إحدى وستين مرة كما نبذ كل عوامل الفرقة والخلاف والتحلل والعصبية فقال الرسول ﷺ (ليس منا من دعى إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية) جاء الاسلام ليزيل كل عوامل الخلاف بين جميع أبناء الأديان ليهديهم إلى المحبة والاخوة والسلام فقال الرسول ﷺ (الدين المعاملة) بها يختبر جوهر أبناء الأديان كما يختبر الذهب بالنار وكما تختبر المرأة بالذهب وكما يختبر الرجل بالمرأة ، إذا حسنت المعاملة وجد للدين كيان فى قلوب أتباعه وإن ساءت فلا وجود للدين إلا بين الكتب والطوامير ليت ذلك فحسب بل يضحى الإنسان الذى خلقه الله خليفة له فى أرضه ومشرفا للعبودية له وحده ومكرما بأن خلق فى أحسن تقويم قد رد إلى أسفل السافلين بجموح نفسه وإنحراف عقله وانسياق غرائزه مع كل ماينافى شريعة الله التى قال الله عنها فى كتابه الكريم (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط المستقيم) .

ولقد أدى صراع المسلمين على الدنيا وتنافسهم عليها أن دمر بعضهم بعضا وصار بأسهم بينهم شديد ورخص الانسان ونضبت القيم الانسانية فلم يهابهم عدو بل قذف الله فى قلوبهم الخوف والوهن فصاروا فريسة لكل طامع مستعمر استعمرهم فكريا واقتصاديا واجتماعياً وسياسيا وجعلهم عبيداً له وتبعا كما تسرب الشك فى ايمان أبناء الإسلام بالاسلام فاختلفوا وانقسموا إلى تبع للرأسمالية

وأنصار للشيوعية وأحزاب وشيع متصارعة وأصبحوا مطلباً سهلا لكل طالب يريد ان يجعل منهم مزرعة لنظمه فيفصل أبناء الإسلام وصراعهم على شهوات الدنيا وبأطماع المستعمر جدبت أرض الإسلام فصارت مزرعة لجميع مبادىء العالم الطامع شرقه وغربه وما أسرع أن نبت بأرض الاسلام نبات السوء حتى إذا سار الاسلام اسما والايمان رسما والدنيا هم المسلمين والشهوة قبلتهم ومسعاهم جهلوا حقيقة الإسلام والناس دائما أعداء ما جهلوا وليس غريبا أن يحارب المسلم دينه ذالك الدين الذى يقف حجر عثرة أمام شهوات كل مشتهى وأطماع كل طامع وفساد كل مفسد يريد أن يقلب آية الله ويغير سنته ولولا ما فى الاسلام من عوامل المناعة والقوة لكان المنتمون إلى الإســـلام من عباد الدنيا أول عوامل هدم الاسلام وانهياره .

إن هذا الاسلام الذى استشهد فى سبيله ملايين المسلمين فى كل دول العالم أغلى وأنفس من كل شهوات الدنيا الزائلة ولذائذها البائدة ونعمها الفانية إن هذا الاسلام هو الذى جعل من الضعفاء أقوياء ومن الفقراء بعفة النفس أغنياء ومن المتباغضين آخاء ومن الأعداء أحباء ومن الشقاق أشقاء ومن الضيق رخاء وخلق من الموتى أحياء ومن الجبناء شهداء ومن عبيد الأوثان والشهوات السادة الطلقاء ومن المسترقين نبلاء ومن البخلاء كرماء ومن عديمى الهوية أعز أبناء وخير صبغة وطلاء ومن كان بأسهم بينهم فصار ضد الأعداء وأخرج الفسقة الفجرة العبدة الاتقياء ومن الصم العمى سامعين بصراء ومن البكم فصحاء بلغاء ومن التافهين عظماء ومن المجانين عقلاء ومن الجبابرة رحماء ومن عباد الخطيئة حكماء ومن القساة ودعاء ومن الصعاليك ورثة الأنبياء ومن الجهلاء علماء ومن الخونة أمناء اصفياء كاخلق من ضلال الأرض خير أرواح السماء ومن الضائعين فى الرغام خير أمة فى العلاء وصدق الله إذ قال (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

وإن الطريق السوى لمعرفة حقيقة الاسلام هى تعلمة وقد قال ﷺ فى ذلك (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (إن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء) (ماعبد الله تعالى بشىء أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) (ولكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقة) (يشفع يوم القيامة

ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء) (فضل المؤمن العالم على العابد بسبعين درجة) (وخير العبادة الفقه)[1] (إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله) (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين) (العلماء ورثة الأنبياء) (أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد) (لموت قبيلة أيسر من موت عالم) (العالم أمين الله سبحانه فى الأرض) (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها) (لا ينبغى للجاهل أن يسكت على جهله ولا العالم أن يسكت على علمه) (من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الاسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة) (من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقا) (نعم العلم ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة) (وما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى) (على خلفائى رحمة الله قيل ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله) (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به) (الدال على الخير كفاعله) .

إلهى هـــذا الكتاب اقدمه لك من أجل دينك فاقبله منى وأرحنى به يوم لقائك يوم لا ينفع مال ولا بنون . ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف

محمود عبد الحميد السيد

---

(١) احياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ج ١ ص ٨ .

التعريف بالاسلام

الاسلام هو دين الله الذي ارتضاه للعالمين حماية لوحدتهم وتكريما لإنسانيتهم وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم وهو دين النبيين جميعا تجدد ثم وكمل على يد محمد ﷺ لذلك اشترط الاسلام الإيمان بالرسل جميعا كما قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) وعد التفرقة بينهم كفرا بهم جميعا وتكذيب أحدهم تكذيب لهم جميعا إذ قال تعالى (ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) كما أن الفرقة فى الدين من صنع شهوات نفوس المنحرفين عن جوهر الدين يبرأ منها الأنبياء وهذا قول الله (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون).

فالإسلام هو إسلام الوجه لله تعالى عملا بقوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا) (قل أسلمت وجهى لله) (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) كما قال الرسول ﷺ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) أى أن الإسلام هو نبذ كل صفات الشر التى ورثها الإنسان من الجاهلية والتخلق بمكارم الأخلاق وسلوكه مسلك عباد الرحمن الذين قال عنهم الله (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما).

الإسلام دعوة للعالم أجمع :

وذلك يتجلى فى قوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (إن هو إلا ذكر للعالمين)

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا) (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) (يا أيها الناس أنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض) (ان هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) كما قال الرسول ﷺ (كل نبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وإن بلالا أول ثمار الحبشة وإن صهيبا أول ثمار الروم) (لو أن موسى حيا ما وسعه إلا إتباعى) ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفقه الثغور ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجا صغيرة فى بحره المتلاطم فوطن المسلم العالم كله ذلك لأن الإسلام دين الإنسانية بلا تفريق أى كل العالم والرسول ﷺ يقول (وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة) (الأنبياء إخوة وأمهاتهم شتى ودينهم واحد) .

الأديان هى الإسلام :

إن جميع الأديان هى الخضوع لله والتسليم له وذلك من قوله تعالى (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) المسلم هو الذى رضى بطاعة الله لأن ذلك من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها وقد ذكر أن ملكة سبأ قالت لقومها (يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا إلى وأتونى مسلمين) (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) وقال نوح (وأمرت أن أكون من المسلمين) ويعقوب يوصى بنيه (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وأبناء يعقوب يجيبون أباهم (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) وفى سورة يوسف (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) وموسى يقول لقومه (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) والحواريون يقولون لعيسى (آمنا بالله

ونشهد بأننا مسلمون) وأن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن قالوا (آمنا به أنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) .

فالقرآن يبين المسلمين دينهم لأنه دين الأنبياء من قبلهم فيقول الله فيه (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليه وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وجعل جميع الأنبياء وأتباعهم أمة واحدة إلها واحد وذلك فى قوله تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) والإسلام يكشف عن دعوة إنسانية عالمية واحدة تجعل الأديان جميعا دينا واحدا لعبادة إله واحد لا وجود أمامه لعصبية الدم أو اللون أو الجنس أو قيود المكان والزمان بل توحيد وإيمان لا يعرف التعديد والكفران .

كم يجد المسيحى فى القرآن تكريما لنبيه فلا يكمل إسلام المسلم إلا إذا آمن بكل الرسل وكتبهم كذلك اليهودى يجد فى القرآن تكريما لموسى كلم الله والإنسانية كلها تجد فيه تكريما للانسان إذ قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) كذلك فإن الرسول ﷺ فى دعوته إنما يسير على سنة من سبقه من الرسل الذين لم يحملوا الإنسانية دينا غير الإسلام وذلك يتجلى فى قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين) بذلك يبين أن الإسلام تجميع لخصائص النبوات فى نبوه واحدة خاتمة تخرج إلى الإنسانية جمعاء لتجمعها إلى أصلها الواحـــد الذى ترد إليه وهو الله خالقها وباعثها .

ان جميع روافد الأديان تصب فى معين واحد لدعوة واحدة هى الإيمان بالله الذى قال (ان الدين عند الله الإسلام) كذلك فإن التفريق بين الرسل انكار لدعوة الإسلام (لا نفرق بين أحد من رسله) إذ فى التفريق بين الرسل مخالفة للفطرة التى فطر الله الناس عليها وفطرة الله هى هداه الذى لم ينقطع عن الخلق قط وجاءت به رسل الله تباعا لهداية الناس وقال تعالى (فمن تبع هداى

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فنور هدى الله يضيء دياجى الحياة ويبدد ظلام العيش وويل شقاء النفوس وحيرة العقول وكد الأجساد وتعاسة الأرواح وغبش الشكوك وعرامة الأضاليل ودعارة الوساوس ويرد الإنسان سليما معافا من كل شيء .

لم يخص الله سبحانه وتعالى برسوله محمد ﷺ بلدا دون بلد أو جنسا دون جنس أو مكانا دون مكان وزمانا دون زمان بل قال تعالى فى كتابه الكريم (وما أرسلناك إلا كافة للناس) الناس فى أى مكان كانوا وفى أى زمان يكونوا جاء إليهم رسول الله مبشرا ونذيرا موحدا الله ومكملا ومجددا دينه وخاتما رسله وداعيا الانسانية فى وحدة وجودها ولوحدة مصدرها لتوحيد خالقها ونبذ كل أسباب الفرقة وأساليب الصراع وطرق الخلاف وسبل النزاع فكان حقا الإسلام كما قال تعالى فى كتابه الكريم (وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) لم يكن رسول الإسلام داعيا إلى مجد أجداده ولا إلى حضارة لبلده ولا إلى امبروطورية تحكم العالم باسم الإسلام ولا إلى ملك يرثه عنه خلفه ولا إلى نظام اقتصادى مستغل تسعد به بلد على حساب تعاسة سائر الأمم ولا إلى قوة عربية مستبدة تخضع لها سائر الدول بل دعى إلى تحرير الإنسان من كل القيود والأغلال التى أحاطت به منذ ولادته فى كل مكان وزمان وليكون رحمة للعالمين كما قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكما قال الرسول (إنما الرحمة للكافة) وليكون سراجا منيرا يضيء الدنيا ظلمة حياتها وكأنها أسرة واحدة .

هكذا يظهر الإسلام دينا عالميا جعل الأديان كلها إسلام الوجه لله وخضوع وخشوع فلم يكن دينا إقليميا لبلد دون بلد أو زمن دون زمن بل دينا عاما للانسانية جمعاء أثبت نجاحه فى صلاح ما أفسده الإنسان بطيشه ونزواته وبناء ما دمره بجموح شهواته وإظهار ما أخفاه سيء رغباته .

وإن الباحث عن الإنسانية فى الاسلام يراها شاملة لمعنيين المعنى الاول هو عالمية الاسلام أي ظهور الاسلام بشكل دولى العالم على حد السواء والمعنى

الثانى هو مخاطبة الانسان ليتبوء مكانته من التكريم وليكون كما خلقه الله خليفة له فى أحسن تقويم وقوام تلك الانسانية ما دعى إليه الاسلام من رحمة وإحسان ومكارم أخلاق وجهاد نفس وسماحة وسائر المبادىء التى تعد غذاء نورانيا لاهوتيا لازما لروح الانسان لزوم الماء والغذاء والهواء لبقاء الجسد البشرى وإذا خسرت البشرية تلك القيم الانسانية أى ذلك الغذاء النورانى .

العلوى الذى يرفعها إلى عليين ويربطها برابط سماوى مقدس تتجمع فيه لتكون كيانا واحدا رغم تعددها فالأجزاء فى الكل وجود واحد لا يعرف التباين والتنافر والخلاف فالبشرية بتلك الخسارة الباهظة تكون قد فقدت شق معناها بل ضلت مناها وتاهت فلم تدرك من ذكاها وتضحى وجودا ظلمانيا ماديا يتيه فيه الفرد وترخص قيمته وتنحط قيمة وترد إلى أسفل سافلين وتبدو الأثرة القاتلة والشهوة الطاغية التى تحيل البشر إلى مصاف العجماوات بل أضل وتبعدهم عن المعنى الربانى الذى خلقوا من أجله أى لصيروا أوادم طاهرة يستظلون بظل الانسانية ويتسمون باسمها حقا وحقيقة .

سماحة الاسـلام

من سماحة الاسلام إطلاق الحريات فى شتى المجالات أولا : الحرية الشخصية ثانياً : حرية الرأى ثالثا : حرية العقيدة رابعاً : حرمة الملكية .

خامساً : تحرير الرق

أولا : الحرية الشخصية : تتمثل فى حرية التنقل وحق الأمن وحرمة المسكن وحرية التنقل فى نظر الفقه الاسلامى تتمثل فى حرية المأوى وفى أحكام الاسلام ما يكفل هذه الحرية فإن النفى أو الابعاد يعد عقوبة لم يذكرها القرآن الكريم إلا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا [١] كما أن الاسلام يسمح بتقييد هذه الحرية بما يقتضيه الصالح العام فعمر بن الخطاب

---

(١) السياسة الشرعية بن القيم ص ٣٢ .

رضى الله عنه كان يحرم على كبار الصحابة وأهل الرأى مغادرة المدينة إلا لولاية يتولونها أو لقيادة جيش وذلك حتى يتيسر الرجوع إليهم فيما يعرض له من مشاكل (١) .

وفيما يتعلق بحق الأمن :

وهو مايسميه البعض حرية الذات أو الحرية الشخصية وكفل الاسلام هذا الحق بما وضع من عقوبات تشمل الحدود والتعزير وأنها لا تضبط إلا بنص لا بالرأى والقياس وقال تعالى « لا عدوان إلا على الظالمين » (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وقد شهد التاريخ بأن دولة الاسلام التى أسسها الرسول وحكمها بالعقوبات الاسلامية الواردة فى التشريع القرآنى مكنت لرعايا تلك الدولة حياة ظللها الأمن ورفرف عليها الاستقرار وندرت فيها الجريمة .

وأما عن حرمة المسكن :

فقد كفلها الاسلام فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (وآتوا البيوت من أبوابها ولا تجسسوا) وقال ﷺ (إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع)

ثانيـــا : حرية الرأى :

لقد كفل الاسلام للفرد حرية الرأى فجعل ابداء الرأى حقا له وواجبا عليه والنصوص القرآنية كثيرة منها قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (وادعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) كما قال الرسول (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ورغم فتح السبيل أمام الحرية فقد وضع الاسلام لتلك الحرية حدودا فقال تعالى «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) وقال الرسول (ليس المؤمن بلعان ولا طعان ولا فاحش ولا بذىء) لذلك فتح الاسلام لكل مجتهد

---

(١) أبو زهرة المذاهب الاسلامية ص ٤٢ بعدها .

أن يجتهد برأيه فى حدود أصول الدين الكلية وجاء فى السنة (أن كل مجتهد مأجور إن أخطأ فله أجر وأن أصاب فله أجران) وقال د : جوستان لوبون أن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع إستقامة الدين [١] وقد حكى عمر فى إحدى خطبه يا أيها الناس من رأى منكم فى إعوجاجا فليقومه فقام رجل وقال والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال عمر الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم عمر بسيفه كذلك قال عمر فى إحدى خطبه لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية فقامت امرأة وقالت ماذلك لك ياعمر فقال عمر ولم قالت لأن الله قال (وإن آتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتانا وإثما مبينا) فقال عمر امرأة أصابت ورجل أخطأ [٢] .

ثالثــا : حرية العقيدة :

تختلف عن حرية المسلم فى تكوين الرأى بصدد المسائل الشرعية وقصد بحرية العقيدة حرية غير المسلم فى اعتناق الدين الاسلامى وحرية إقامة شعائره الدينية إذ ذخر القرآن بعديد من الآيات التى تكفل حرية العقيدة فقال تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) (وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) كما أن الاسلام يدعو إلى الايمان بالتأمل والنظر لا بمجرد المحاكاه وتقليد الآباء فقال تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ونجد الأستاذ الامام محمد عبده يقول « إن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى أقتنع به فمن ربى على التسليم بغير عقل وعلى العمل ولو صالحا بغير فقه فهو غير مؤمن [٣] .

---

(١) راجع الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده ص ٨٦ .
(٢) ضحى الاسلام أحمد أمين جـ ٢ ص ١٧ .
(٣) راجع السياسة الشرعية للشيخ خلاف ص ٣٩ .

وقد ذكر الأستاذ : درابر أحد كبار المؤرخين والفلاسفة الأمريكان أن المسلمين الأول فى عصر الخلفاء لم يقتصروا على معاملة أهل العلم من النصارى والنسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب عليا فى الدولة [١] وقال العالم البريطانى السير أنولد أننا إذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الاسلام بعيد عن التصديق كما أنه يذكر العديد من الشواهد التى تشهد بأن المسيحيين الذين كانوا تحت حكم الاسـلام اعتنقوا الاسلام عن حرية كاملة [٢] فالفتح الاسلامى قد جلب إلى القبط فى مصر حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم يتمتعوا بها قبل ذلك وقد تركهم عمرو بن العاص أحرارا على أن يدفعوا الجزية وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم وخلصهم من مظالم الحكم الرومانى لذلك انتشر الاسلام فى الهند وفارس دون استعمال العنف وكان للقسس الكاثوليك مكانة الصدارة لدى الفاتحين المسلمين فى الأندلس كما ذكر السير توماس أرنولد أن الطبيب الخاص لهارون الرشيد كان مسيحيا نسطوريا كما قرر الأستاذ : محمد عبده أن الاضطهاد الدينى لم يعرف طريقه فى نفوس المسلمين إلا بعد أن بدأت تدب روح الضعف فى سيطرة أحكام الاسلام ولقد قال الرسول ﷺ عن أهل الذمة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) (من آذى ذميا فقد آذانا) (من آذى ذميا فليس منا) لذلك كان أهل الذمة يتمتعون بما يتمتع به أبناء الاسلام من أمن وحريه وكيان مستقل وحرمة دين وقداسة فكر .

كيف انتشر الاسلام :

قال البعض انتشر الاسلام بحد السيف وإستند بقوله تعالى (كتب عليكم

---

(١) الاسلام والنصرانية للامام محمد عبده ص ١٥ .

(٢) الدعوة إلى الاسلام للسير توماس أرنولد ترجمة عام ١٩٤٧ ص ٦٥ .

(٣) الاسلام والنصرانية محمد عبده ص ٦٤ .

القتال وهو كره لكم) (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) ، (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) ، (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ، (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) .

كما قال البعض أن الإسلام ذو نزعة سلمية إذ طبيعة الإسلام ومبادؤه العامة تدعو للتسامح والعفو والسلام ، والمحبة الشاملة وذلك من قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، (وادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) ، (يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة [1] كما أن القتال في الإسلام إنما شرع لدفع العداوة والظلم وحماية الدعوة ومنعا للفتنة ، لذلك قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ، (وقاتلوا في سبيل الله الذي يقاتلونكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين) [2] — كما أنه لا يحل قتل النساء والصبيان والرهبان والشيخ الكبير والأعمى ونحوهم لأنهم كانوا لا يعدون من المقاتلين ، ولو كان القتال من أجل حمل الناس على إجابة الدعوة لما كان ثمة ما يبرر استثناء الرهبان وغيرهم ، كما أن الدين محله القلب والعقل ولا يمكن أن يتم ذلك قهراً وإنما بالحجة والدليل عملا بقوله تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وإذا ، رجع الباحث في تاريخ حروب الرسول ﷺ مع الكفار لوجد أن تلك الحروب كانت كلها دفاعا لا اعتداء إذ أن الرسول والمسلمين كانوا مهددين بالهجوم عليهم من الكفار الذين

---

(١) الإسلام والنصرانية للامام محمد عبده ص ٦٢ ونظرات في الإسلام طبعة ١٩٥٨ د : محمد عبد الله ص ٩١ .

(٢) السياسية الشرعية للشيخ خلاف ص ٢٧ .

يضمرون للإسلام العداء ووقفوا منه موقف المتحفز للهجوم بل تفننوا فى تعذيب من دخل فى الإسلام (١) .

كما أن البعض قال أن الإسلام كعقيدة ذو صبغة سلميه وكنظام ذو صبغة حربية وذلك رأى وسط بين الرأيين ، السابقين ، ويتلخص هذا الرأى فى أن الإسلام عقيدة وشريعة تنطوى على النظام الاجتماعى ، فهو كعقيدة ذو نزعة سلميه لأنه يدعى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة إذ العقائد محلها القلب ولا تدخل إلا بالحجة والدليل والبرهان ، أما التشريعات والنظم الاجتماعية فهى لا تقوم إلا إذا كانت مستندة إلى القوة إذ للحجة عمل لا يقوم به السيف ، والسيف عمل لا تنهض به الحجة (٢) .

رابعـــاً : حرية الملكية :

لقد أقر الإسلام الملكية الفردية وكفلها ، كما نهى القرآن الكريم عن الاعتداء على مال الغير ومن ذلك قوله تعالى ، (ولا تأكلوا أموالكم بالباطل) كما قرر عقوبة شديده على السرقة ، كما أنه لم يحدد الثروة بحد أعلى ، كما لم يمنع تحديد الثروة تبعا للضرورة والمصلحة العامة ووضع بعض القيود فى إستعمال حق الملكية ووجوه الانفاق .

ولقد قال تعالى فى القرآن الكريم : (لله ملك السموات والأرض) ، (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) كما أن الإنسان فيما يحوزه من أموال إنما خليفة عن الله محاسب على كيفية انفاقه ودليل ذلك قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وفى تفسير ذلك يقول الزمخشرى أن المقصود بها أن الأموال التى فى أيدى

---

(١) نظام الحكم فى الإســـلام د : محمــد يوسف موسى ص ١٥ طبعة ١٩٦٢ .

(٢) نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم طبعة ١٩٢٥ ص ١٤٣ للشيخ محمد الخضر حسين .

الناس إنما هى أموال الله وما هم إلا بمثابة وكلاء أو نواب ينفقون المال فيما أمر به الله .

كما يلاحظ فى بعض آيات القرآن الكريم نسبة المال إلى المجتمع ، كما فى قوله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) فالأموال أموال السفهاء ولكن الله عبر عنها بقوله أموالكم للدلالة على أنها جعلت أداة لصالح المجتمع كله وأن تصرف السفهاء فيها يسىء إلى المجتمع كله [1] إذن يبين أن الإسلام ينظر للملكية على أنها شرعت لصالح الفرد والجماعة معاً لأنها ليست مطلقة بل مقيدة بقيود تتمثل فى .

١ — تحريم التبذير والتقتير . وقد ذكر عن ابن عمر قوله : من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائبة فقد برىء من الشح [2] كذلك وصف الإسلام المبذرين (كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) كافرض الحجر على السفهاء وتوعدهم بالعذاب فقال تعالى (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) وحرم الاحتكار للسلع .

٢ — الزكاة أو الصدقات : وقد قال تعالى عنها : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وهى فريضة على كل من أحرز نصاب الزكاة وهى ركن من أركان الإسلام ولا يقوم الإسلام بدونه ، وهى تستحق عملا بقوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) ولا فرق بين المسلم وغير المسلم فى استحقاقها وقال تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) ولم يكن الأسير إلا من المشركين يومئذ ، وقد تصدق الرسول ﷺ على اليهود والرهبان ، وروى أن عمر بن الخطاب أمر برفع الجزية عن كل ذمى لا يقدر

---

(١) منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ محمود شلتوت ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الأموال للامام أبى عبيد ص ٣٥٧ والمؤلف رسول الاسلام ص ١٦٠ طبعة ١٩٧١ .

على أدائها وأن يفرض له فى بيت المال ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الاسلام [1] ولقد وجبت الزكاة فى الأموال المرصدة للنماء أما بنفسها أو بالعمل فيها بشرط أن يحول عليها الحول عملا بقول رسول الله ﷺ « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول ومقدار الزكاة فى الذهب والفضة ربع العشر من رأس المال .

٣ — نظام الارث والوصية : يقيد الاسلام حرية المالك فى التصرف فى ملكه بعد وفاته ، كما أنه يحول دون حصر الثروة فى أيدى فئة قليلة إذ أن الارث يشرك عددا كبيرا من أقرباء المتوفى فى التركة ولا يحصر حق الارث فى فئة قليلة كبعض الشرائع وقد قال جوستاف لبيون فى كتابه حضارة العرب ص ٤١٦ ترجمة الأستاذ محمد عادل أن مبادىء المواريث التى نص عليها القرآن الكريم على جانب عظيم من العدل والانصاف ، والشريعة الاسلامية منحت الزوجات حقوقا فى المواريث لا نجد مثلها فى قوانيننا ، أما عن الوصية فالمالك غير حر فى الايصاء بماله إلى من يشاء فقد حرم الوصية لوارث ولا يبيح الوصية لغير وارث إلا فى حدود الثلث أى جعل الميراث إجباريا فى حدد الثلثين .

٤ — قيود أخرى على الملكية : من المبادىء الشرعية الشهيرة أن الضرورات تبيح المحظورات وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى (ومن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) وعرف الامام الغزالى المصلحة بأنها المحافظة على مقصود الشرع ومقصوده خمس : المحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال وحفظ تلك الأمور الخمسة واقع فى رتبة الضرورات [2] وقال تعالى (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولقد كان الصحابة يشرعون بما تقضى به المصلحة كما أن منهم من عمل على تأويل بعض النصوص أو إهمال القياس رعاية لهذه المصالح وهناك نجم الدين الطوفى أحد

---

(١) الأموال للامام أبى عبيد ص ٦١٣ .

(٢) المستصفى من علم الأصول لحجة الاسلام الغزالى جزء ١ ص ١٤٠ .

العلماء الحنابلة من يقدم المصلحة على النص إذا تعارض معها إذ يرى أن رعاية المصلحة هي غرض الشرع ويرى فقهاء المالكية أن الإمام أن يمنع أو يحد من زراعة العنب في القرية التي أعتاد أهلها أن يزرعوا العنب ليتخذوا منه خمرا (١) وخلاصة القول أن الاسلام جعل الملكية خادمة للفرد والمجتمع غايتها إسعاد المجموع وصولا بالانسان إلى غايته هو أن يكون عبد الله يفيد ويستفيد ويعمل على طاعة الله ومرضاة عباده ويتمثل ذلك في قول الامام على بن أبي طالب (إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء وما جاع فقير إلا بما شبع به غني أي أن السعادة المادية التي يتمتع بها الغني إنما هي على حساب الفقير كذلك ماقاله بن حزم فرض الله على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان إن لم تقم الزكاوات وسائر أموال المسلمين بهم (٢) وقد أعتبر عمر والصحابة أراضي الشام والعراق والجزيرة ومصر رقبتها للدولة وزراعها اجراء عليها يأخذون من ريعها ما يشبع حاجاتهم طوال العام وما بقي للدوله وقال البعض من العلماء أن عمر بن الخطاب سبق بهذا أسقيورت ميل العالم الاجتماعي الانجليزي وغيره من القائلين بعدم جواز تملك الأفراد للارض بل الاحتفاظ برقبتها للدولة بذلك تكون الدولة الاسلامية قد سبقت روسيا في نظامها الاشتراكي .

وقد قال ولديورانت في كتابه قصة الحضارة أن دعوة محمد الرسول نجحت في رفع المستوى الأخلاقي والروحي والاجتماعي للعرب وغيرهم وقل أن نجد إنسان غيره حقق كل ما كان يحلم به لقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين لسنا نجد في التاريخ مصلحا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء وكان يحرض كل موصي بأن يخصص من ماله جزء للفقراء والقرآن يبعث في النفوس الساذجة أسهل العقائد وأقلها غموضا وقد ظل

---

(١) إشتراكية الاسلام للدكتور مصطفى السباعي ص ١٨٧ .

(٢) للمؤلف رسول الاسلام ص ١٧٢ طبعه ١٩٧١ .

الإسلام أكثر من خمسة قرون يتزعم العالم كله فى القوة والنظام وبسطه الملك وجميل الطباع والأخلاق وفى إرتفاع مستوى الحياة وفى التشريع الانسانى الرحيم والتسامح الدينى ؟ قال ماركس « أن الزكاة نظام إجتماعى عام ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء وذلك بطريقة نظامية كما قال ماسنيون إن نظام الاسلام وسط بين الرأسمالية والبلشفية والشيوعية وله ماضى بديع من تعاون الشعوب وليس من مجتمع آخر له ما للاسلام من ماضى مكلل بالنجاح كذلك قال هـ . ج ويلز فى كتابه تاريخ الانسانية أن الاسلام ساد لأنه خير نظام إجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه وقد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوبا تسلب وتظلم وتخوف كما اعترف بذلك مفكرون منصفون مثل كارليل وجوته وجيبون وبرناردشو [١] الذى قال أن رجل كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير ولحل مشكلاته التى يعانى منها على وجه يحقق للعالم السعادة والسلام المنشود الذين أفتقدهما .

خامساً : تحرير الرق :

لقد أدعى الغربيون أن الاسلام أباح الرق وخرج بذلك على مبادىء الحرية والمساواة والحق أن الرق كان أبغض الأشياء إلى الرسول ﷺ فقد آل إليه عبد هو زيد بن حارثه فأعتقه وتبناه حتى ألغى الاسلام نظام التبنى وقيل أنه ﷺ أعتق كثيراً من الرجال والنساء قبل بعثته رسولا وبعدها وذلك من ماله ومال زوجته خديجة [٢] .

الاسلام دعى إلى تحرير الرق تدريجيا :

ويتمثل ذلك فى تضييق المصادر التى تغذى الرق ثم العمل على توسيع دائرة العتق أى تحرير الارقاء أما عن مصادر الرق كانت كثيرة لدى الرومان والمصريين

---

(١) مسلمون وكفى / عبد الكريم الخطيب ص ٥٣ .

(٢) الوحى المحمدى للسيد رشيد ص ٢٧٩ .

وعندما جاء الاسلام قصر الرق على الوراثة أى الرق الذى يفرض على ابن الرقيقة ثم الرق الذى يفرض على أسرى الحرب ورغم ذلك فقد وضع قيودا من شأنها أن تؤدى إلى إنهاء الرق بعد فترة من الزمان .

أما عن تحرير الارقاء فقد شجع الاسلام على العتق وله فى ذلك وسائل منها

١ — أن والداً لأمه يصبح حراً إذا اعترف به السيد وكذلك الأم بعد وفاة سيدها .

٢ — جعل الاسلام عتق الرقيق قربات يتقرب بها العبد لربه .

٣ — وجعل العتق كفارة لعدة ذنوب كالقتل الخطأ والحنث فى اليمين .

٤ — من أسباب العتق أن يدفع العبد لسيده مبلغا من المال .

٥ — فرض الاسلام على بيت المال شراء الأرقاء وتحريرهم عملا بقوله تعالى إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب) وكان عمر بن عبد العزيز يفعل ذلك ويأمر ولاته به إذا لم يجدوا ذا حاجة يعطونه من مال الزكاة [١] .

٦ — جعل الاسلام النطق بالعتق ولو هزلا سببا لتحرير الرقيق .

٧ — كفارة لطم الرقيق عملا بقوله ﷺ « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » [٢] .

معاملة الرقيق فى الاسلام :

لقد حث الاسلام على معاملة الرقيق بالحب والرفق عملا بقوله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) وقال الرسول (استوصوا بالاسارى خيراً) وقد أوصى أصحابه فى موقعة بدر أن يكرموا الاسرى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام وقال ﷺ (لا تقل عبدى ولكن قل فتاى وفتاتى) وكان وهو على فراش الموت يردد الوصية بالمرأة

(١) السير الكبير للامام الشيبانى ص ٧٩ .

(٢) رسول الاسلام للمؤلف ص ٧٩ .

والرقيق (اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والرقيق) وكانت عقوبة الرقيق نصف عقوبة الحر فى حين شريعة الرومان كانت عقوبة الرقيق ضعف عقوبة الحر كما أباحت الشريعة الاسلامية وللرقيق الذكر التزوج من أمه أو حرة وكذلك للأمة أن تتزوج من حر أو رقيق وفضل القرآن الامه المؤمنة على المشركة الحرة وكذلك العبد المؤمن على المشرك الحر ومما قاله جوستاف لوبون أن الذى أراه صدقا هو أن الرق لدى المسلمين غيره لدى النصارى فيما مضى وأن الارقاء فى الشرق أفضل حالا من الخدم فى أوربا فالأرقاء فى الشرق جزء من الأسرة [١] وكذلك اعترف السير توماس أرنولد فى كتابه الدعوة إلى الإسلام .

وإذا كان الاسلام قد أقر بظهور الرق كذلك كان لضرورة حربية إذلم يكن يباح الرق إلا فى الحرب لأن أعداء الإسلام كانوا يسترقون أسرى المسلمين فإذا تغير الحال وأصبح خصوم الإسلام لا يسترقون المسلمين كان واجبا على المسلمين أن يمتنعوا عن الاسترقاء ، إلا خالفوا الآية التى تنهى عن الاعتداء وذلك فى قوله (ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين) [٢] .

مبدأ المساواة :

لقد جاء الإسلام بمبدأ المساواه فى بيئة كانت تمج بالقبلية وليس لأهلها إلا التفاخر بالألقاب والأنساب وبذلك سبق الإسلام جميع التشريعات فى مبدأ المساواة الذى جذب كثيرا من الشعوب للدخول فيه كما يرى بعض الكتاب الغربيين أن ذلك المبدأ هو من عناصر قوة الدولة الإسلامية [٣] .

ولقد ظهر ذلك المبدأ من نصوص القرآن الكريم فقال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

---

(١) حضارة العرب جوستاف لوبون ص ٤٥٩ .

(٢) السير الكبير للشيبانى ص ٨٣ : ٨٤ .

(٣) موجز فى تاريخ العالم هج ويلز وأرنولد فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ص ٢٤٥ .

شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم) وتفسير تلك الآية أن الإسلام يدعو الناس عامه لا أمة معينة ولا أفضلية لجنس أو لون وأن على جميع العرب أن تعارف كي تتآلف وتتعاون وتتواد إذ الأفضلية للناس بأعمالهم لا أنسابهم وأموالهم وقد ذكر الرسول ﷺ فى خطبة الوداع (ليس لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى) كذلك يذكر عن الرسول قوله لبنى هاشم (يا بنى هاشم لا يجىء الناس الأعمال وتجيئونى بالأنساب إن أكركم عند الله أتقاكم) كما حكى أن الرسول رفض طلب زعماء العرب طرد بلال الفارسى وصهيب الرومى من مجلسه كما قال ﷺ (سلمان منا آل البيت) .

صور المساواة :

المساواة التى يقررها الإسلام تتضمن مساواة الأفراد أمام القانون وليس هناك فرد لا يخضع تحت طائلة القانون مهما كان مكانه فلا امتياز لأحد والكل سواء أمام القضاء وليس لطائفة محكمة خاصة ولا حصانة فأكبر الناس مقاما كأقلهم مكانا فلا أسر ولا عصبية ولا طبقات ولا فوارق راجعة إلى الأصل أو الجنس أو اللون أو الثروة فأغنى الناس مع أفقر الناس على حد السواء أمام حكم الله وقضائه (٢) وأمام حق الاشتراك فى شئون الحكم .

الإسلام فضل بين العباد :

رغم أن الاسلام دعا إلى المساوة التامة بين العباد إلا أنه لم يقصد بذلك إزالة التفاوت فى درجات الأفراد ومراكزها إذا كان ذلك التفاوت راجعا إلى العلم والتقوى والصلاح فقد قال تعالى (ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) (ولكل درجات مما عملوا) (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) كذلك فإن

---

(١) السياسة الشرعية للشيخ خلاف ص ٤٠ .

(٢) المؤلف رسول الاسلام ص ٣٢ طبعة ٧١ .

التفاوت فى الدرجة بين الرسل عملا بقوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) .

كذلك فإن الاسلام لم يأخذ بمبدأ المساواة المطلقة أمام القانون بالنسبة للذميين والرقيق والمرأة وفيما يتعلق بأهل الذمة فإذا التجأوا إلى القضاء فعلى القاضى المسلم أن يحكم بينهم وهذا ما يراه أبو حنيفة ويرى الامام مالك أن القاضى المسلم مخير بين الحكم والاعراض ورأى آخر يرى ضرورة الفصل فى قضاء أهل الذمة وإن لم يتقدموا بعرض قضاياهم وفيما يتعلق بتولى الذمى القضاء فى الاسلام فإن حكمه يسرى على أهل الذمة فحسب دون المسلمين ذلك لأن غير المسلم أهل لأن يشهد فى حق غير المسلمين فيكون أهلا للقضاء بينهم لأن أهلية القضاء مستمدة من أهلية الشهادة وغير المسلم أهل لشهادته ويكون أهلا لقضائه (١) وفيما يتعلق بالحقوق السياسية أى تلك التى تتصل بشئون الحكم والادارة فقد سمح للذميين بتولى مناصب الدولة حتى منصب الوزارة إلا أنهم حرموا أن يكونوا من أهل الشورى الذين يلجأ الخليفة باستشاراتهم ويرى الماوردى أنه يجوز لهم تولى وزارات التنفيذ لا التفويض إذ يجوز لوزير التفويض التصرف فى أموال بيت المال (٢) وقد أتهم بعض المستشرقين الاسلام بأنه يوصى بالتباعد عن أهل الكتاب (٣) وذلك فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم أن الله لا يهدى القوم الظالمين) ولقد رأى بعض المفسرين أن تلك الآية نزلت عقب بعض أحداث غزوة أحد حين خشى البعض أو تدور الدائرة على المسلمين فى تلك الموقعة ففكر بعضهم أن يلحق باليهود فيتهود وفكر البعض أن يلحق بالنصارى فيتنصر طلبا للنجاة فأنزل الله تلك الآية ينهى ذلك البعض عما كانوا

---

(١) التشريع الاسلامى لغير المسلمين للشيخ المراغى ص ٩٨ .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٥ .
(٣) حضارة الاسلام جوستاف جروبنباوم ص٣٢٨ ترجمة عبدالعزيز توفيق

فيه يفكرون [١] وقال بعض المفسرين أن الآية قصد بها المنافقين الذين كانوا يوالون المشركين ويفشون بأسرار المؤمنين [٢] وخلاصة القول قوامها العقيدة الدينية وقد ألقى عبء الجهاد والدفاع عن الدين على عاتق المسلمين لا أهل الذمة وقد تبين أن يكون هناك فارق فى المعاملة بين المسلم والذمى إلا أن الإسلام أكرم أهل الذمة بسياسة التسامح والوداعة وما جاء التعصب الدينى إلا وليد الانحراف عن تعاليم الاسلام .

أما عن معاملة الرق فقد أوصى الاسلام بالرقيق خيراً وتجلى ذلك فى قول الرسول (اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والرقيق) وقد أباح الاسلام رق الحروب التى بدأت مع الكفار لأجل معلوم ورحم الاسلام الرقيق فجعل عقوبته نصف عقوبة الحر ويعللون ذلك بأن النفس إذا هانت سهل عليها ارتكاب الجرائم أما عن معاملة المرأة فقد تساوت بالرجل فيما يتعلق بالولاية الخاصة إلا أنه فيما يتعلق بالولاية العامة فلم يذكر أن شيئاً من تلك الولاية قد أسند إلى المرأة كما يرى الماوردى بجواز قيام المرأة بكل عمل لا يتصل بسلطة الحكم كالوزارة ومن الفقهاء من أجاز للمرأة تولى أعمال الولاية العامة ما عدا رياسة الدولة عملا بقول الرسول ﷺ (لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة) أما فيما يتعلق بالميراث فقد نبذ الاسلام مبدأ المساواه فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين وذلك لأن الرجل هو الذى يتولى دفع المهر وتأسيس منزل الزوجية والانفاق على الزوجة والأولاد كما أن شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل كذلك لا تصلى ولا تصوم إذا كانت حائضة .

مبدأ الشورى :

مبدأ الشورى من المبادىء الأساسية التى يقوم عليها الحكم فى الاسلام

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير الألوسى جزء ٦ ص ١٠٦ . (٢) تفسير القرطبى جزء ٦ ص ٢١٦ .

(٣) الاسلام والنصرانية للامام محمد عبده ص ٦٤ .

وذلك أخذا بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) (وشاورهم فى الأمر) كما قال الرسول ﷺ (ما ندم ما استشار ولا خاب من استخار) (لا خير فى أمر أبرم من غير شورى) وروى أبو هريرة أن رسول الله لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه منه فقد استشار أصحابه فى غزوة بدر واحد والخندق وفى مصالحة الأحزاب من المشركين [1] .

مكانة الشورى :

اختلف الفقهاء حول الشورى هل هى فرض محتوم على الحاكم أم مندوبه أى يحمد فاعلها ولا يذم تاركها وتعد أمراً مستحسنا لا فرضا لازما (٢) وقد قال رأى من الفقهاء بأن الشورى تعد واجبا مفروضا إذ أن الله وضع الشورى بين ركنين من أركان الاسلام هما الصلاة والزكاة فقال تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) كما أن الله تعالى أمر رسوله إذ قال (وشاورهم فى الأمر) وذكر القرطبى أن سادات العرب إذا لم يشاوروا فى الأمر شق عليهم وفى مشاوراتهم ذهاب لاضغانهم (٣) كذلك كان الرسول يكثر من الاستشارة وكان يقول (لا خير فى أمر أبرم من غير شورى) وكذلك كان كل من أبى بكر وعمر إذ استشارا قبل إبرام الأمر .

وقد قال فريق من الفقهاء ان الأمر بالشورى إنما كان للندب لا الوجوب وأن أمر الرسول بمشاورة أصحابه إنما كان تطييباً لقلوبهم وكان ذلك الرأى سببا فى هدم الشورى مما حدى بكثير من الخلفاء إلى استخدام سلطانهم المطلق فيما يريدون وإن المتأمل فى أمر الله رسوله ﷺ بالشورى رغم أنه مؤيد بوحى الله وتسديده وأنه لا يعمل إلا من أجل دين الله ومصلحة عباده يجد أن الحكمة من وراء ذلك هو محاربة الاسلام للسلطة المطلقة للحاكم والاعتداد بالمحكومين

---

(١) راجع تفسير ابن كثير طبعة ١٩٢٧ ص ٤٢٠ .

(٢) سلم الوصول لعلم الأصول للشيخ محمد عبد الله ص ٥٢ طبعة ٥ .

(٣) تفسير القرطبى ص ٢٤٩ .

وأن السلطة من الأمة ولا يقيدها ويلزمها مالا ترضاه أما القانون وهو تشريع الله فليس للحاكم والمحكوم سواء أى لا يدلها فى نصوصه فلا شورة إلا فيما لا نص فيه وكان من الأمور الهامة ومن الدقة والخطر مما يتطلب أعمال الفكر وغالبية تلك الأمور تتعلق الحروب حتى أن المفسرين الكلمة الأمر يقولون أنه الحرب [1] كما أنه لوحظ فى أبى بكر وعمر بن الخطاب أخذهما الشورى فى القضاء وإختياره الولاه .

أهل الشورى : هم أولئك الذين يجب أن يستشاروا وهم أهل الحل والعقد فكان الرسول ﷺ يأمر القاضى باستشارة أهل الفقه كما كان بعض الصحابة يستشيرونه فى عهده فيما شكل عليهم من القضايا كما كان الرسول ﷺ يقتصر على استشارة عمر وأبى بكر حتى أنهما كانا يوصفان بأنهما وزيريه وأحيانا كان يشير على الرسول واحد وإثنان بالرأى وأحياناً كان يطلب إلى الناس أن يشيروا عليه بالرأى كما تذكر كتب التاريخ والتفسير (٢) وقد حكى أن أبى بكر وعمر لجأ إلى الشورى حين أراد كل منهم أن يختار خليفة بعده

وقف المال للامة

لم يرد بوقف المال نص فى القرآن الكريم ولكن بينه النبى ﷺ إذ اتفق الرواة أن النبى وقف سبع حوائط بساتين كما أن عمر بن الخطاب حضر إلى النبى ﷺ وقال أنى أحييت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه فما تأمرنى فقال الرسول ﷺ إن شئت حبست أصلها وتصدقت بثمرتها فجعلها عمر لا تباع ولا وهب ولا تورث وتصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب والغزاة وفى سبيل الله والضعيف ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف وأن يطعم صديقا غير متمول منها كما أقبل المهاجرون والأنصار على وقف بعض أموالهم ولذلك قال جابر لم أعلم أحدا من المهاجرين والأنصار إلا حبس مالا من ماله صدقه مؤبدة لا تشترى أبداً ولا توهب وتورث كما ثبت أيضا أن كل من أبى بكر وعثمان وعلى حبس شيئا من أمواله وتبعهم من أتى بعدهم بحيث أنه لم يخلو عصر من العصور إلا وحبس فيه إناس شىء من أموالهم على جهات خيرية بذلك يكون وقف المال للصالح العام ثابت بالسنة القولية والعملية والاجماع من أكابر الصحابة وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن الاسلام إنما جاء لخدمة الانسان على مر العصور

(١) الكشاف للزمخشرى ص ٢١٦ (٢) سيرة ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦٦

الرحمـــة الإسلامية

جاءت تعاليم الاسلام كلها رحمة للإنسان فقال ﷺ (إنما أنا رحمة مهداه) (الراحمون يرحمهم الرحمن) (إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) وقال جابر كان النبى ﷺ فى السفر فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس فقال ما باله قالوا رجل صـــائم فقال ﷺ (ليس من البر أن تصوموا فى السفر وعليكم برخصة الله التى رخص لكم فاقبلوها) وما كان غرض الاسلام من ذلك إلا رحمة لنفوس المسلمين والحرص عليها من المشقة .

وحكى أن الرسول ﷺ بلغه أن عبد الله بن العاص يصوم دائما ويقوم الليل كله فيقول الرسول له بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم الليل فلا تفعل فان لجسدك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولزوجك عليك حقا صم وافطر صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر قال يارسول الله أنى أطيق أفضل من ذلك قال فصم يوما وافطر يوما فذلك صوم داود وهو اعدل الصيام قال يارسول الله أنى أطيق أفضل من ذلك قال الرسول لا أفضل من ذلك . وقال الرسول ﷺ أنى أقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه وقد حكى أن رجلا أقبـــل إلى الرسول ﷺ يبايعه على الهجرة والجهاد فى سبيل الله تحت رايته فقال له هل من والديك أحد حى فقال نعم كلاهما حى قال الرسول ﷺ فارجع إلى والديك وأحسن صحبتهما وقدم آخر يبايع الرسول ﷺ وترك أبواه يبكيان فقال له الرسول ﷺ ارجع اليهما فاضحكهما كما أبكيتهما وآخر قال للرسول ﷺ أنى اشتهى الجهاد ولا أقدر عليه فيقول له الرسول هل بقى من الديك أحد فيقول نعم فيقول الرسول ﷺ له (قابل الله فى برها فإذا فعلت ذلك فانت حاج ومعتمر ومجاهد) .

قال أبو ذر سألت رسول ﷺ ماذا ينجى العبد من النار قال (الإيمان بالله فقلت يانبى الله مع الايمان عمل ؟ قال أن تعطى مما رزقك الله قلت يانبى الله إذا كان فقيراً ولا يجد مايعطى ؟ قال يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قلت فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر قال فليعن

الأخرق قلت يارسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع قال فليعن مظلوما قلت فإن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما قال ماتريد أن تترك لصاحبك من خير ؟ ليمسك أذاه عن الناس قلت يارسول الله أو إن فعل هذا يدخل الجنة قال ﷺ ما من عبـــد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة) .

هكذا الرحمة ترجح على العبادة من حج وعمرة وجهاد وذلك يتجلى من قول الرسول ﷺ تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبدالله فى صومعة ستين عاما وفى يوم أمطرت الأرض فاخضرت فأشرف الراهب من صومعته وقال لو نزلت لذكرت الله وازددت خيراً ومعه رغيف أو رغيفان بينما هو فى الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاءه سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له وقال الرسول ﷺ (أتى الله بعبد من عباده كان قد أتاه مالا فقال له ماذا عملت فى الدنيا فقال يارب اتيتنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلق الجواز أى التسامح فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى وأدخله الله الجنة) .

وقال الرسول ﷺ من يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، من أنظر معسراً أو وضع له أى تنازل عن جزء من الدين أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه) من أراد أن تستجاب دعوته وتكشف كربته فليفرج عن معسر وقال الرسول ﷺ (أن الله عزوجل يوم القيامة يقول يابن آدم مرضت فلم تعدنى قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه

أماعلمت أنك لو اطعمته لوجدت ذلك عندى يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقيه أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى .

لقد أقام الاسلام البناء الاجتماعى على أسس الرحمة لا الظلم والصلة لاالقطيعة والود لا الهجر والعطف لا القسوة والتواضع لا الكبر وشيوع المعروف لا شيوع المنكر فقال تعالى (إنما المؤمنون اخوة) .

وقال البراء ابن عازب رضى الله عنه أمرنا رسول الله ﷺ بسبع أمرنا بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبراء المقسم ونصرة المظلوم وإجابة الداعى وإفشاء السلام) .

وقال ﷺ احتجت النار والجنة فقالت النار فى الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فى ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى الله بينهما قال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابى أعذب بك من أشاء .

بذلك يبين أن أهل الغطرسة والتكبر لا يغبطون على ما هم فيه من مرض نفسى حرمهم ميزة التواضع وسلبهم نعمة الحب وافقدهم خيرات الرحمة ووزنهم الرسول بميزان الحق فقال عنهم (إن الرجل العظيم يأتى يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) ذلك الميزان الإلهى العادل الذى يزن الناس لا بجاههم ولا ثرائهم وأنسابهم بل يزنهم بتواضعهم وتقديسهم لكرامة الإنسان وحكى أن الرسول ﷺ نظر لأحد أشراف الناس ورجل من فقراء المسلمين فقال عن الأخير هذا خير من ملء الأرض من مثل ذاك) .

حق الجوار

لقد حافظ الاسلام على حق الجوار لحمى الضعيف من القوى فأوصى الرسول ﷺ قائلا (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من هو يارسول الله قال من لا يأمن جاره بوائقه) هنا ينفى الرسول ﷺ الإيمان عن كل جار يؤذى جاره أو يخافه جاره ولا يأمن

شروره حرصا على الإيمان قامت رابطة الجوار على أساس المحبة والود والاخوة والأمان . وقال الرسول ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصحابه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره) .

وقد قيل للرسول أن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال هى فى النار ووضح الرسول حقوق الجار فقال إذا استعان بك فأعنته وإذا استقرضك اقرضته وإذا افتقر عدت عليه وإذا مرض عدته وإذا أصابه خير هنأته وإذا أصابته مصيبة عزيته وإذ مات اتبعت جنازته ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذيه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها وإذا اشتريت فاكهة فأهد له فإن لم تفعل فادخلها سرآ ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده) هنا جعل الرسول الجيران أخوة بل اسرة واحدة يشد بعضها بعضا وكأنهم جسد واحد لامريض إلا نال علاجه ولامحتاج إلا أخذ حاجته ولا معسر إلا فرج عنه يعيشون فى تواد دائم ويقود بعضهم بعضا إلى حياة هادئة تظلها سحائب السكينة والأمان .

صلة الرحم :

قال ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ويضرب عليه السلام مثلا رائعا لأهمية الرحمة وجلالها فيقول (إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحمة فقالت هذا مقام العائذ بالله من القطيعة قال الله أما ترضين أن أصل من وصلك واقطع من قطعك قالت بلى قال فذلك لك .

كذلك فإن الرسول لم يترك اليتيم والأرملة والمسكين فقال (انا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين مشيرآ بأصبعه السبابة والوسطى) (إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم يكرم) (والذى بعثنى بالحق لايعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم وألان له فى الكلام ورحم يتمه وضعفه) (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يقوم الليل ويصوم النهار) بذلك التوجيه حرص المسلمون على جنة الله فكفلوا اليتيم كما يكفله وليه بل وأكرموه كى يكون البيت الذى يستقر

فيه اليتيم أحب بيت عنـــد الله فى الأرض بل يضاهى المساجد ذلك البيت الذى يعيش فيه اليتيم عيشة راضية لاقسوة فيها ولا ظلم بل حب وحنان وإكرام ليت ذلك فحسب بل مكرم اليتيم له عهد من الله ألا يعذبه يوم القيامة وزاد على ذلك فجعل الساعى على الأرملة والمسكين مثله كمثل العابد الذى يقوم الليل ويصوم النهار وكالمجاهد فى سبيل الله لأنه بذلك حفظ ماء وجه الأرملة وكرامتها وحماها من إغراء الطامعين ومفسدة المفسدين وكذلك المسكين .

صلاح النفس :

لم يترك الاسلام الخطايا الظاهرة بل دخل إلى نفس الإنسان فاصلحها ليردها نفساطاهرة سويه فقال تعالى عن النفس (قد أفلح من زكاها وقدخاب من دساها) وتزكية النفس إنما يكون بهجر كل ما يقف حجر عثرة أمام نيل المثل العليا وقال ﷺ (شركم سريع الغضب بطىء الفيء وخيركم بطىء الغضب سريع الفيء) وحين يسأل أحد الصحابة الرسول ﷺ عن العمل الذى يدخله الجنة يجيبه قائلا (لا تغضب ولك الجنة) (ليس شديد بالسرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب) (ألا أخبركم عمن تحرم عليه النار تحرم على كل هين لين سهل) (إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنـــة فتتلقاهم الملائكة فيقولون إنا نراكم سراعا إلى الجنة فمن أنتم فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون وما فضلكم فيقولون كنا إذ ظلمنا صبرنا وإذا أسيء إلينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين) (الغضب يفسد الإيمان) .

هجر الحســـد :

وكى يسير الإسلام مسيرته السوية عى بنفس المسلم فخلصها من التباغض والحسد فقال الرسول ﷺ (ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخواناً) وقال ابن سيرين ماحسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه ان كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى الجنة وإن كان

من أهل النار فكيف أحسده على الدنيا وهو يسير إلى النار (١) وقال الرسول ﷺ (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) (الدنيا جيفة وطلابها كلاب) (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم) كما قال الله عن متاع الدنيا فى كتابه الكريم (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) بذلك الوصف الحقيقى للدنيا لا يحسد المؤمن أحداً على دنيا يصيبها لأنها قليل من كثير عند الله سبحانه وتعالى ، كذلك فقد وضع الإسلام لمسيرة الانسان من القداسة والحرمة مثل ما لبيت الله الحرام فيقول الرسول (اتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع فقال الرسول المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه) (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة) (شرار الناس يوم القيامة المشاءون بالنميمة المفرقون الأحبه الملتمسون للبرئاء العيب) (المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان) (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل يارسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه) وقال الرسول فى خطبة الوداع (إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألاهل بلغت أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أرأيت أن كان فى أخى كره قال ﷺ إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإذا لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) (لا يجتمع فى جوف عبد الايمان والحسد) (التقى النقى الذى لا إثم فيه ولا بغى ولاحسد) (اياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولاتحسسوا ولا تجسسوا) (ألا أخبركم بشر عباد الله الفظ المستكبر) (بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه) (بئس العبد عبد تخيل واختال ونسى الكبير المتعال) (بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى) (بئس العبد عبد طغى وبغى ونسى المبدأ والمنتهى) (إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفتر أحد ولا يبغى أحد على أحد) (المؤمن ليس بلعان) .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٩ ص ١٦٧٧ طبعة دار الشعب

مقام الإحسان : وإنه لمن عظمة الإسلام أن حث المسلم على مقابلة الإساءة بالإحسان وذلك يتجلى فى قوله ﷺ (صل من قطعك واعفو عمن ظلمك واحسن لمن أساء إليك) وذلك هو أسمى ما يعامل به الإنسان أخاه فى الإنسانية أى يقابل السيئة بالحسنة والظلم بالعفو والقطيعة بالصلة ويميت فى نفسه شهوة الانتقام من النفس والرغبة الجامحة فى القصاص وقال الرسول (من أقال نادماً أقال الله نفسه يوم القيامة ومن أتاه أخوه متنصلا (معتذراً) فليقبل ذلك محقاً كان أم مبطلا فإن لم يفعل لم يرد على الحوض) وقال عن شرار الخلق وأكثرهم سوءاً (هم الذين لا يقبلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يقبلون ذنباً) وفى ذات يوم أقبل عليه الصلاة والسلام على أحد أصحابه وقال له يا أبا أيوب : ألا أدلك على تجارة ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله ؟ قال أبو أيوب بلى يا رسول الله قال له صل بين الناس إذا تفاسدوا وقرب بينهم إذا تباعدوا) هكذا الإسلام يصلح أفراده إذا فسدوا وجعل إصلاح الأنفس إذا فسدت والتقريب بينها إذا تباعدت وتنافرت تجارة مع الله لا يخسر فيها محترف أو هاوى له الأجر والثواب وفق فى الإصلاح أم لم يوفق بل أصبح الكل حبا فى الثواب يتنافسون فى الإصلاح بين الناس الأمر الذى قل معه رفع الأنزعة أمام محترفى العدل لإصلاح الناس .

هجر الغضب : عالج الإسلام الغضب وذلك لخطورته فى حياة الفرد والأسرة والمجتمع فقال تعالى (والكاظمين الغيظ) (خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين) وحكى أن عمر بن عبد العزيز أمر بضرب رجل فقرأ قوله تعالى والكاظمين الغيظ فعدل عن أمره[1] وحكى أن رسول الله بعث خادما له فى حاجة فأبطأ عليه فقال (لولا القصاص لأوجعته) وقيل ما كان فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين واخشى الموت

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالى جـ٩ ص١٦٢١ .

واذكر الآخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه وقال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار) — (إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء إذا غضب أحدكم فليتوضأ) .

وروى عن أبي ذر قال لرجل ياابن الحمراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يا أبي ذر بلغني أنك اليوم عايرت أخاك بأمه) فقال نعم فانطلق أبي ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمـــل) ثم قال إذ غضبت فإن كنت قائماً فاقعد وإن كنت قاعداً فاتكىء ، وإن كنت متكئا فاضطجع .

فضيلة كف الغضب : قال صلى الله عليه وسلم (أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة) — (ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى) — (إن لجهنم بابا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى) — (ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيمانا) واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فاجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع وقال رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له رجلا ألا تسمع أن الله تعالى يقول (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما ناراً فأطفئت وحكى أن رجلا جاء إلى سلمان الفارسي وقال له أوصنى قال لا تغضب فقال لا أقدر فقال له فإن غضبت فامسك لسانك ويدك .

الدعوة للحلم : والحلم هنا أفضل من كظم الغيظ الذى هو التحلم والحلم دلالة على كمال العقل وابتداء الحلم بالتحلم هو كظم الغيظ تكلفا وقال صلى الله عليه

وسلم (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم) (واطلبوا العلم بالسكينة والحلم ليتوا أ لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم) وقال الرسول (اللهم اغنى بالعلم وزينى بالحلم واكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية) - (ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هى يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك) - (إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وأنه ليكتب جباراً عنيداً ولا يملك إلا أهل بيته) - (ليلينى منكم ذووا الأحلام والنهى) وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه (ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير بأن يكثر علمك ويعظم حلمك وألا تباهى الناس بعبادة الله) .

وحكى أن لقمان قال ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا الأخ إلا عند الحاجة) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه) وحكى أن عمر رأى سكرانا فأراد أن يأخذه ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر فقيل له يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته لأنه أغضبنى ولو عزرته لكان ذلك لغضبى لنفسى ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسى

الدعوه إلى العفو والإحسان : والعفو هو أن يستحق صاحبه حقا فيسقطه أى يترك لنفسه القصاص وقال تعالى فيـــه (وإن تعفو أقرب للتقوى) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (التواضع لا يزيد العبد إلا رفعه فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله) وقال الرسول (قال موسى عليه السلام أى عبادك أعز عليك قال الذى إذا قدر عفا) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة وقال ما تقولون وما تظنون قالوا نقول أخ وابن عم حليم ورحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما يقول يوسف (لا تثريب عليكم اليوم

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » قال فخرجوا وكأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام .

وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى منادى ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة ، وقيل ومن ذا الذى له أجر قال العافون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب » .

الرفق : وهو مضاد العنف والحدة ومن حسن الخلق الرفق واللين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » - « إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف » - « من حرم الرفق حرم الخير كله » - « أيما وال ولى فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة » - « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة ؟ كل هين لين سهل قريب وقال صلى الله عليه وسلم ياعائشة : أنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة » - « ومامن أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى » .

الحب[1] : من خصائص الإسلام أنه دين ارتفع بالإنسان إلى أعلى درجات الإنسانية فتجلى ذلك فى دعوة الإسلام إلى الحب لجمع الناس بعد فرقه وتوحيدهم بعد اختلاف وتقويتهم بعد ضعف فالحب أساس الوصل وسبب الجمع وركيزة اتحاد الكائنات وإخلاصها فإذا انعدم حلت الفرقة محل الوصل وساد النفور وعم التصارع وانتشر العنف وانحدرت الأسرة إلى هاوية الدمار وأصبح الناس كوحوش الفلاه يدروا إذا خافوا ويقبلوا إذا سالت لعابهم بالمغريات وتتحول السياسة إلى مراوغة وخداع دافعها التسلط وحب الذات ويكون الاقتصاد غايته الاستغلال والمنافسة أما القيم الأخلاقية فهى فى نظر أنصارها صفقة وحرفة وفى نظر الجماهير خرافة ويضيع فى لجنة الظلام والكراهية حقيقة الإيمان وتتجلى للدين صورة جديدة تغاير لحواه عندئذ كشف الإسلام عن سر شقاء البشرية فقال

---

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص ١٤٢ .

الله فى كتابه الكريم (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) هكذا دعى الإسلام إلى العمل الأحسن للعدو قبل الصديق وذلك قمة الحب الذى يقدس الإنسانية ويجل كيانها فى الإنسان كذلك فإن الإسلام يدعو إلى درء كل أعمال العنف إذ قال فى كتابه (ومن عفا وأصلح فأجره على الله) - (وقولوا للناس حسنا) - (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) - (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم «لا تؤمنوا حتى تحابوا» - «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» - «لا تدخلوا الجنة حتى تحابوا» وقال تعالى «حقت محبتى للمتحابين فى وحقت محبتى للمتواصلين فى وحقت محبتى للمتناصحين فى وحقت محبتى للمتزاورين فى وحقت محبتى للمتباذلين فى المتحابين فى على منابر من نور يغبطهم بمكانتهم النبيون والصديقون والشهداء» - «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله» - «إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان» - «ما زار رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة» - «من آخا أخا فى الله رفعه الله درجة فى الجنة لا ينالها بشىء من عمله» - «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا[1]» «والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا».

ويقال إن الأخوين فى الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منها - رجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه».

وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه عليكم بالإخوان فإنهم عدة

---

(١) إحياء علوم الدين الغزالى جـ ٢ ٩٢٦ .

فى الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنه والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حبا لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئا .

ما يشترط فى الخليل : لم يجعل الإسلام كل البشر فى الصحبة على حد السواء فلابد للصاحب أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها فى صحبته فقد قال رسول الله ﷺ « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

وقد قال بعض السلف استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك وروى فى غريب التفسير فى قوله تعالى (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) قال يشفعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم ويقال إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه وقال الإمام الغزالى يشترط فى من تؤثر صحبته خمس خصال أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا وحكى أن علقمة العطاردى قال فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة يا بنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة إصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مونة مانك اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولتما أمراً أمرك وإن تنازعتما آثرك وشرط أن يكون قائما بجميعها قيل لأنه أراد لابنه ألا يصحب أحداً .

وقال الإمام على عليه السلام « إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك شتت فيك شمله ليجمعك » وقال أبو ذر رضى الله عنه « الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة وقال الإمام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه « صحبة الحريص على الدنيا سم قاتل فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة » .

حق الأخوة — أولا : المساواة بالمال وهي على ثلاث أن تنزله منزلة خادمك أو منزلة نفسك أو تؤثره على نفسك وقال تعالى فى المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) أى كانوا خلطاء فى الأموال وحكى أن رجلا جاء إلى أبى هريرة رضى الله عنه وقال إنى أريد أن آخيك فى الله قال ما تدرى حق الإخاء قال عرفنى قال ألا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى قال لم أبلغ هذه المنزلة بعد قال فاذهب عنى .

٢ — قضاء الحاجة : قال جعفر بن محمد إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائى مخافة أن أردهم فيستغنوا عنى هذا فى الأعداء فكيف فى الأصدقاء وكان فى السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته ويتردد عليهم كل يوم ويعدهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا لا يرون منهم ما لم يروا من أبيهم فى حياته وقال الميمون بن مهران من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته . قال ﷺ « ألا إن لله أوانى فى أرضه وهى القلوب أحب الأوانى إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها » أصفاها من الذنوب وأصلبها فى الدين وأرقها على الإخوان وقال الحسن إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

٣ — السكوت عن ذكر عيوبه : فى غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ولا يبيح له سراً وأن لا ينقل قدح غيره فيه فإن الذى سبك من بلغك ولا ينبغى أن يخفى ما يسمع من الثناء عليك وقال الفضيل الفتوة العفو عن زلات الإخوان لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استعيذوا بالله من الجار السوء الذى إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره » ويجب السكوت بالقلب بترك سوء الظن وهى غيبة بالقلب قال صلى الله عليه وسلم إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » « لا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » .

٤ — النطق بالمحاب : قال ﷺ « إذا حب أحدكم أخاه فليخبره » والمراد بذلك زيادة الحب وقال عمر رضى الله عنه ثلاث يصفين لك ود أخيك أن تسلم عليه إذا لقيته أولا وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحسن الأسماء إليه وقال البعض من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة وإن أثنى عليه بما يعرف عنه من محاسن ويحميه بدفع ذم الاعداء وقال البعض ما ذكر أخ لى إلا تصورت نفسى فى صورته فقلت فيه ما أحب أن يقال فيه فقال ﷺ « وأبا هر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » — « المؤمن مرآة المؤمن » أى يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد وقال الشافعى رضى الله عنه من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد نصحه وشانه وإن الله تعالى تعالى يعاقب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه فى ظل ستره ويوقفه على ذنوبه سراً .

٥ — العفو عن الذلات والسقطات . وقال أبو الدرداء إذا تغير أخوك ومال عما كان عليه فلا تدعه من أجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى وقد حكى عن أخوين من السلف انقلبا أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه ألا تقطعه وتهجره ؟ فقال أحوج ما كان إلى فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده واتلطف له وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه والبعض كأبى ذر يرى بغض الأخ إذا عصى الله إلا أن الإمام أبو حامد الغزالى يرى أن الإخوة فى الدين عقد ينزل منزلة الكرامة ودوام العطف واللطف والرفق والاستمالة يفضى إلى الرجوع والتوبة ومن الوفاء ألا يهمل الأخ أخاه أيام حاجته وفقره وفقر الدين أشد من فقر المال والأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان .

٦ — الدعاء للأخ فى حياته ومماته وقال ﷺ « يستجاب للرجل ما لا يستجاب له فى نفسه » — « دعوة الرجل لأخيه فى ظهر الغيب لا ترد » وقال محمد بن يوسف واين مثل الأخ الصالح أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت وهو منفرد بحزنك مهتم بما قدمت وما صرت إليه

يدعوا لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، قال ﷺ « مثل الميت فى قبره مثل الغريق يتعلق بكل شىء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال » .

٧ – الوفاء والإخلاص أى الثبات على الحب الذى أريد به الآخرة وقال البعض قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيرة فى حال الحياة ومن ثمرة المودة فى الله ألا تكون مع حسد وقد وصف الله المحبين فيه فقال (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم) .

٨ – التخفيف وترك التكليف والتكلف بأن لا يكلف أخاه بما يشق عليه ولا يقصد بالمحبة إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناساً بلقائه واستعانة به على دينه وتقرباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وقال بعض الحكماء من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ومن جعل نفسه فى قدرة تعب وأتعبهم ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا وقال سيدنا على عليه السلام شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراه وألجأك إلى اعتذار وقال جعفر الصادق رضى الله عنه أثقل إخوانى على من يتكلف على وأتحفظ منه .

رحمة الإسلام بالحيوان

جاء الإسلام رحمة لجميع الكائنات وليكون الإنسان خليفة الله فى رحمته وعطفه فجاءت رحمة الإسلام شاملة لسائر الحيوانات حتى الحشرات القاتلة فيدعو الرسول إلى المهارة فى قتل الحشرة فى غير إيلام فيقول ﷺ « من قتل وزغة فى أول ضربة كتبت له مائة حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك » . كذلك لم ينس الإسلام الرحمة بالحيوان الذى لا يملك الشكوى ولا يخبر أحدا بمكائه وآلامه وأوجاعه فقال ﷺ « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت لا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » وقال عبد الله ابن جعفر دخل رسول الله ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما

رأى النبي حن حتى حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله فمسح ذفراه فسكت وقال الرسول من رب هذا الجمل فقال فتى من الأنصار هو لى يا رسول الله فقال الرسول ألا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها فإنه شكى إلى أنك تجيعه وتدئبه » — « إن الله كتب الإحسان فى كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » ولما رأى الرسول ﷺ رجلا اضجع شاة وهو يحد شفرته قال له (أتريد أن تميتها موتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها » ورأى عمر رجلا يسحب شاه ليذبحها فقال له ويل لك قدها إلى الموت قوداً جميلا وضرب جمالا وهو يقول له لما حملت جملك ما لا يطيق كما دعى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفق فقال « إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ولا نزع من شىء إلا شانه » وقد حكى أن عمر بن عبدالعزيز فى إحدى جولاته أبصر إناسا يحملون مقارع فى أسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم فأصدر قراراً بتحريم استخدامها[1] وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال لها الرسول (يا عائشة عليكى بالرفق فإنه لا يدخل فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شأنه[2] وقال الرسول « إنما أنا رحمة مهداة » فهو رحمة لجميع المخلوقات وحكى أن رجلا كان مع الرسول فى سفر فرأى حمامة على فرخان لها فأخذهما فجاءت حمامة تعرش فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من فجع هذه بولدها ، ردوا ولدها إليها[3] .

---

(١) خالد محمد خالد عمر بن عبد العزيز ص٢٣ .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى ج٩ ص١٦١٤ طبعة دار الشعب

(٣) الدعوة الإسلامية لمحمد الراوى ص٤٣٤ .

إنسانية الإسلام فى معاملة المذنبين

لم تكن إنسانية الإسلام قاصرة على المحسنين بل شملت المذنبين ذلك لأنه دين الإنسانية للإنسان مهما كان دينه ولونه وجنسه ومسلكه حسنا كان أم مذنبا وحكى أن جىء بسارق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الشاهد الذى رآه يسرق فقال رأيت هذا يسرق فقال رسول الله « هلا قلت رأيته يأخذ » وفى ذلك حماية لشعور المذنب وخلق الفرصة أمامه ليستقيم فى مسلكه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » تاركا الفاعل الحقيقى يحسن ذنبه ويعرف خطأه دون أن يعرف الآخرون شيئا عنه وحكى أنه فى ذات يوم جلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع الصحابة بالمسجد ينتظرون الصلاة بعد أن أكلوا لحم جذور وانبعثت فى المجلس ريح أدرك الرسول أنها من غازات الجرف وأن صاحب هذه الريح وقع فى حرج شديد وبعد لحظات سيقومون للصلاة وإذا أراد ذلك المجهول أن يقوم ليتوضأ بان للآخرين أنه مصدر الريح الكريهة وفى ذلك إحراج وإحجال له وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم للجالسين . « من أكل لحم جذور فليتوضأ قال الصحابة كلنا أكلنا لحم جذور يا رسول الله قال إذن كلكم يتوضأ وقاموا جميعا للوضوء ومن بينهم ذلك الذى صدر منه الريح » .

الإنسانية عند تنفيذ العقوبة : دعى الرسول صلى الله عليه وسلم وآله إلى تطبيق الحدود فقال « حد يعمل به خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا » . « يا أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » وأبو يوسف يقول للحاكم لو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف الفساق وأهل الدعارة وتناهوا عما هم فيه ورغم دعوة الإسلام إلى تنفيذ الحدود فإنه إذا جلد مذنبا حفظت له إنسانيته ولا يصفع على وجهه ويراعون درجات الإيلام ولا يزجرونه بكلام وحكى أن بعض

الحاضرين قال عند تنفيذ حد لشارب خمر أخزاك الله فنهاهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قائلا « لا تعينوا عليه الشيطان » كما أن الجلد لا يتم فى عضو واحد حتى لا يفضى إلى تلف ذلك العضو بل يفرق الضرب على سائر الأعضاء إلا الوجه والفرج عملا بقوله صلى الله عليه وسلم « اتقى وجهه ومذاكره » واتقاء الرأس لتخوف التلف إلا أن بعض الفقهاء يرى أن يكون الضرب على الظهر فقط واتقاء البطن والمواضع القاتلة وهذا ما يقول به فقهاء الحنفية[1] كما اشترط فى الجلد ألا يؤدى إلى هلاك المحدود لأنه حد زاجر لا حد مهلك .

التنفيذ على الحامل : لا يقام الحد على حامل حتى تضع سواء أكان الحمل من زنا أو غيره وروى فى ذلك حديث الغامدية إذ روى أن امرأة من بنى غامد جاءت الرسول مقرة بالزنا وهى حامل وقالت أنها حبلى من الزنا فقال لها صلى الله عليه وسلم « ارجعى حتى تضعى ما فى بطنك » فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال قد وضعت الغامدية فقال الرسول « إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه » فقام رجل من الأنصار فقال إلى إرضاعه يا رسول الله فرجمها وجرى الصحابة من بعده على هذا وروى أن امرأة زنت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فهم برجمها وهى حامل فقال له معاذ إن كان لك سبيل عليها فليس لك على حملها ولم يرجمها وروى عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال مثل ذلك وعلة عدم إقامة الحد على الحامل أن فيه إتلاف لمعصوم وهو الحمل وسواء كان الحد رجما أو جلداً لا ينفذ على الحامل حتى لا يضار الحمل إذ القاعدة فى الإسلام لا ضرر ولا ضرار وعملا بقوله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) - (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) أى لا يضار إنسان بذنب آخر كذلك حكى الإمام على ابن أبى طالب رضى الله عنه أن أمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت فأمرت أن أجلدها فإذا هى حديثة عهد بنفاس فخشيت إن أنا جلدتها أن أتلفها فذكر

---

(١) فتح القدير جـ٤ ص ١٢٦ .

ذلك الرسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فقال « دعها حتى ينقطع عنها الدم ثم أقم عليها الحد » .

التنفيذ على المريض : إذا كان الحد رجما لايؤخر أما إذا كان جلدا والمريض يرجى شفاؤه فإن الحد يؤجل لحين الشفاء حتى لا يتلف المريض إلا أن البعض من الفقهاء لا يرى تأخير الحد فى حالة المريض الذى يرجى شفاؤه من مرضه يقام عليه الحد ولا يؤخر ولكن . يشترط أن يقام بسوط يؤمن معه التلف وإن خيف عليه من ذلك جمع ضغث فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحده وحجتهم فى ذلك من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بضرب مريض ضنى ضربة واحدة بمائة شمراخ لأنه زنا لأن المريض الميؤوس من شفائه إما أن يترك لمرضه فلا ينفذ عليه الحد أو ينفذ عليه الحد كاملا فيؤدى ذلك إلى موته وتعين التوسط فى الأمر وجلده جلدة واحدة بمائة شمراخ كما قال تعالى (وخذ بيدك ضغثا ولاوتحنث) .

ونخلص من ذلك إلى أن الحد غير المهلك يجب أن ينفذ بطريقة إنسانية لا يترتب عليها هلاك محدود سواء كان مريضا أو معافى فيتم ذلك زجر المذنب ولو كان مريضا ليتعظ به من تسول له نفسه ليذنب مع ضمان حياة المذنب وحماية إنسانيته لينضم إلى المجتمع عضواً سويا بإقامة حد الله الذى أعاده تائبا منيبا مطهراً .

إنسانية الإسلام فى معاملة الخدم

قال صلى الله عليه وسلم « إن من لم يرحم لم يرحم » - « إنما أنا رحمة مهداة »[1] وقالت عائشة قال الرسول لى اغسلى وجه أسامة فجعلت أغسله وأما آنفه فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله وقال الرسول ﷺ

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ٦ ص١٠٣٣ طبعة دار الكتب .

« اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فامسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » ـ « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » وجاء رجل إلى الرسول وقال كم نعفوا عن الخادم فقال صلى الله عليه وآله وسلم « إعفوا عنه فى كل يوم سبعين مرة » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا وجد عبداً فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجل على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له ياعبد الله احمله خلفك إنما هو أخوك روحه مثل روحك فحمله ثم قال لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار . فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وعفيف متعفف ذو عيال وأول ثلاثة يدخلون النار أمير مسلط وذو ثروة لا يعطى حق الله وفقير فخور » ـ « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سىء الملكة » .

من ذلك العرض السالف لأقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يبين لنا أن الإسلام رفع من إنسانية الخادم وجعله أخا للمخدوم وقضى على معاملة الجاهلية وجعلها إكرام وعفو ومساواة وحب فى الله طمعا فى ثواب الآخرة وذلك يتجلى فى الدعوة إلى صيانة الجوارى وعتقهن والتزوج منهن ومشاركة الخدم فى الطعام واللباس فزالت الفوارق الطبقية الصارخة وبدى المجتمع الإسلامى أسرة واحدة يعمل أعضاؤها فى حب وإخلاص ومساواة طلبا لمرضاة الإله وقد اعترف أحد الكتاب الغرب بأن الرقيق فى الإسلام كان يعامل معاملة أعظم من المعاملة التى كانت تعامل بها المرأة فى أوربا فى القرن الثامن عشر إذ كانت الكنيسة تنظر إلى المرأة على أنها رجس من عمل الشيطان وحكى أن الكنيسة قامت ببيع امرأة فى سوق لندن بشلن لأنها ضاقت من نفقة طعامها وإيوائها .

السلام غاية الإنسانية فى الإسلام

قبل الإســـلام انتشرت الوثنية وزادت المنازعات بين العرب وظهرت العصبية وكثرت الحروب وعم الأخذ بالثأر ، وما أن ظهر الإسلام حتى ظهرت من تعاليمه الأخوة الإنسانية وعم التضامن والحب والتسامح وزالت العصبية واتحدت الأنفس المتنازعة والقبائل المتحاربة ووحد الإسلام القبائل وكانت قد قضت عليها الحروب .

واسم الإسلام مشتق من السلام إذ جاء من أجله ودعى إليه والمؤمنون بالإسلام لم يجدوا إسما أفضل من إسمه ذلك لأنه دين الحنيفية السمحة إذ قال عنها الله (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس) والإسلام سلام مع الله وطاعة له وذلك فى قوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا) — (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) (قل أسلمت وجهى لله) — (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) فـــكل من خضع لله وأطاعه واتبع أنبيائه فهو مسلم أسلم وجهه لرب — الكون طائعا كذلك جعل الإسلام كلمة السلام أساس معاملاته فتحية المسلمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وختام صلاتهم سلام على اليمين وسلام على الشمال والقرآن نزل فى ليلة كلها سلام نزلت به ملائكة السلام (إنا أنزلناه فى ليلة القدر . . . سلام هى حتى مطلع الفجر) وخير مايلق الله به عباده تحية السلام (وتحيتهم فيها سلام) والملائكة يتقبلون العباد الصالحين فى الجنة بالسلام (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم) .

حتى الجنة التى وعد بها المتقون الصالحون سميت بدار السلام (لهم دار السلام عند ربهم) - (والله يدعوا إلى دار السلام) حتى أن إسم السلام إسم من أسماء الله (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام) .

كذلك فإن خطاب عباد الرحمن لكل جاهل هو السلام «وعباد الرحمن الذين يمشوا على الأرض هونا وإذا خاطبهم (الجاهلون قالوا سلاما) وكذلك إذا تقاتلت طائفتان من المؤمنين فقد أمر الاسلام بحل نزاعهما أولا بطريق السلام وبتمثل فى إتخاذ كل الوسائل لإجراء الصلح بينهما كما قال تعالى «وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فأصلحوا بينهما» (والصلح خير).

ولقد لفظ الاسلام العنف والتجبر والظلم ودعى فى دستوره إلى التواصى بالصبر والحق إذ قال تعالى (والعصر أن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

وقد جاء دستور الاسلام ينص على «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى لا يكره أحد فى عقيدته لأن الاسلام لا يقوم على الجبر والقهر بل على العقل والفكر والايمان القلبى وتأيد ذلك بقول الرسول ﷺ «العقل أصل دينى» فالإسلام كعقيدة لم يقم فى القلوب والعقول بحد السيف بل على أساس الحب واليقين والتذوق كذلك أوصى رسول الاسلام بغير المسلمين خيرا وحذر من آذاهم فقال «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة» - «لا يزعج يهودى فى يهوديته ولا يكدرون ولا يكون عليهم جبر ولا إكراه وإنى لأذب عنهم بنفسى والموالى وأنصارى» كما نهى الاسلام عن الاعتداء فقال تعالى (إن الله لا يحب المعتدين) لذلك قابل الرسول إساءة أعدائه من المشركين الذين عذبوه بقوله «أخ كريم وابن أخ كريم اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون».

كما أن دعوة الاسلام المسلمين إلى إتخاذ القوة الحربية تتجلى من قوله تعالى (وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) إنما يقصد من ذلك الارهاب وليس القتال كما تتأكد دعوة الاسلام للسلام بعدم الاستمرار فى مقاتلة العدو إذا جنح إلى السلام والقتال عند المسلمين ليس إلا دفاعا عن وجودهم ليعبدوا الله وينشروا دينه بالسماحة والمحبة (وقاتلوا المشركين

كافة كما يقاتلونكم كافة) (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) .

كما أن أسلوب نشر الدين لم يكن بالعنف بل كان بالحكمة والموعظة الحسنة عملا بقوله تعالى (أدعوا إلى السبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

كما أن الرسول ﷺ وضع للحرب قانونا فقال «لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل» إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الجيش الاسلامى فى حربه لا يريد التنكيل ولا التخريب وإشاعة الدمار بل رد العدوان والمحافظة على سلامة الاموال والأرواح .

كذلك ألتزم المسلمون بالوفاء بالمعاهدات والعهود فى الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما إذ قال تعالى (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) - (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) كذلك قال الرسول ﷺ «من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فانا حجيجه يوم القيامة» .

وإن السلام الحقيقى هو سلام داخلى ينبع من ذات الانسان [1] حيث يسيطر الانسان على ما فى نفسه من حقد وطمع وحسد وغرور فنفس الانسان هى أساس الشرور ومصدر الآثام ومنبع الخطايا ويتأيد ذلك بقوله ﷺ (اعدى أعداؤك نفسك التى جنبيك) كما أن الرسول نصح أحد طلاب النجاة فقال له (عليك نفسك) فالنفس الانسانية إذا غفل عنها الانسان اتجهته شرورها وقضت عليه خطاياها وسوءها الذى وصفها الله تعالى به فقال (إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) .

أليست فوضى العالم المدمرة وإنحلال الأفراد وإنهيار القيم وإنحطاط الفنون والأخلاق والقوانين والثقافات وإنتشار موجة الانتحار وشيوع الخوف

---

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص ٣٣ .

والبغضاء دليل على أن الناس لا يجدون السلام الداخلى لسيطرة الخطيئة على عرش نفوسهم وكم نجد كل ما يخططه الانسان من عمل سريعا ما يتداعى وينهار ولا يكون مصيره إلا الفشل لأن جميع الأعمال جردت من تقوى الله وأفسدتها الخطيئة التى أورثت لكل البشر حياة الآلام والمرارة والمآسى والعار لقد عجزت المدينة الحديثة عن منح الانسان شعورا داخليا يفيض على نفسه بالرضى والقناعة ويملأ فراغها ويهدىء صراعها ويحيل ظلمتها إلى نور وشقوتها إلى سعادة .

كيف يتحقق السلام الخارجى بعد السلام الداخلى ؟ إن الفرد جزء من المجتمع الكل وإذا خربت ذات الفرد من حقيقة السلام وأعوزها الأمن والسكينة وافتقرت إلى الطمأنينة وحرمت من الرضى والقناعة فإن ذلك سيعم أثره سائر مفردات المجتمع حيث تنعكس صورة الفرد على مرآة مجتمعة فسريعا ما يؤثر ويتأثر ولا يظهر الفرد لمجتمعه إلا عنوانا لحقيقته ومثالا لصورته وترجمانا لتقاليده فإن الفرد فريسة التعصب وضحية خبائث الثقافات الدينية الباطلة والفوارق الاجتماعية بين الطبقات والشعوب والحواجز الصناعية التى تفصل الأجناس نصرة للقوميات فالحق إن السلام الخارجى ان يذوق له الفرد طعما وسيخسره كما خسر السلام الداخلى فى ذاته .

إن البشرية الأرضية لن تنعم بالسلام السماوى إلا إذا ارتفعت راية العدل والحق والمساواة فعالم السلام أى عالم الله المثالى يأبى أن يموت لنا أخوة فى البشرية جوعا فى أى أرض كانت بينما الآخرون فى بقاع الأرض يلقون بالطعام الفائض فى عرض البحر ويصابون بالتخمة من الاسراف فى الطعام وليس من العدل أن يحرم لنا إخوة فى البشرية من المال القليل بينما آخرون من الكسالى منعدمى الشرف والضمير يبعثرون المال بغير حساب ولن يرضى عدل الله على الحوائل البغيضة التى بين الأغنياء والفقراء ولا تلك الصورة المحزنة بشر بلا مأوى سكنوا القبور وهاموا على وجوههم كالكلاب الضالة وآخرون سكنوا القصور يكسبون الملايين بلا جهد ولا عرق يتألمون من الكسل والفراغ والترهل

والترف لا سلوى لهم إلا الفسوق وارتكاب المعاصى عندئذ يتحقق قول الله (إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) إذن يشمل الهلاك والدمار الغنى والفقير والمترف والبائس والكبير والصغير لأن المعصية تتمثل فى فقد السلام الداخلى من كل فرد فالفقير امتلأت نفسه حقدا وغيرة وبغضا للاغنياء فخسر بذلك سلام الداخل والخارج أما الغنى فكفر بأنعم الله وفسق عن أمر ربه وفرق بين الخلق وأساء الفهم لمن هم أدنى منه مالا فخسر بذلك سلام نفسه بالداخل وسلام مجتمعه بالخارج .

أليس الفكر الماركسى الشيوعى وليد نفس فقدت من داخلها السلام أى كفرت بكل قيم الدين الذى هو ركيزة السلام النفسى ودعامة السلام الدولى بين الأمم والشعوب لقد نشأ ذلك الفكر وليد الحقد والكراهية والبغضاء لرجال الدين المنحرفين والحكام المتألهين ففقد الثقة فى كل نظام يؤيده الدين يرسف تحت وطأته الانسان مقيدا بقيد الذل والعبودية ليت ذلك فحسب بل أعلن أن الله خرافه وما الدين إلا أفيون الشعوب جاء ذلك الفكر وليد أرض ظالمة مستبدة فكان كفرا لا فكرا وهل يؤدى الظلم الا الى الكفر وحقا ما قاله عمر بن الخطاب « اياكم والظلم فإنه يؤدى الى الكفر » وكأن بن الخطاب رأى الحكام الظلمة وقد ساقوا شعوبهم الى الكفر العلنى بالله ومحاربة جميع الأديان وأصبحت الرذائل أمراً مألوفا والضمير خرافة والقيم نوعا من الأساطير .

أى سلام خارجى يتحقق للعالم من تلك النظم التى أقيمت على أساس الحقد والكراهية والكفر بالله الذى هو السلام ومصدر السلام ؟

إن أى نظام على وجه الأرض لا يؤمن بكيان الانسان وقدسية ذاته وعظمة امكانياته وجلال قدره وقيمة ايمانه لا يمكن أن يحقق لفرد واحد سلاما داخليا يفيض على نفسه سكينة وأمنا وسعادة وشعورا داخليا بالقيمة والكرامة وأنه لناجح كل النجاح فى تربية بشرهم كالحيوانات أو أقل لا هم لهم سوى متطلبات الجسد وفاشل كل الفشل فى خلق الانسان السماوى الأصل الأرضى التراب

الأنسان الذات النورانى الروح الظلمانى الجسد الانسان المنطلق الذى جاء من بيته السماوى حاجا إلى أرض غربته ليؤدى مناسك حجة دون رفث أو فسوق ليعود إلى السلام الذى بعثه و الله ، غانما فى رحلاته الأرضية سالكا فى معارج رقيه سلوك السلام فيكون كما قال الله (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وإنه لخير للعالم الشيوعى الذى عاش فى ظلمة الحيرة و الشك والقلق وأنكر الأديان أن يدرسها دراسة مستفيضة حكيمة ليحمل لواءها ويصلح بها ما فسد من حاله واضطرب من أمره ولا ينظرن لإلتواء دعاه الأديان وتحريف مرادها من التعريف بالحقيقة الكبرى وجهل وفساد بيئتها فذلك النظر السطحى دفع غير القليل من مفردات الجنس البشرى إلى ظلمات القلق بتعطيل النفس عن التطور وإلى بؤس اليأس بتعطيل العقل عن الانطلاق وإلى شقاء الفراغ الداخلى لذواتهم فى الحيلولة بين الامتلاء بالروح وهو ما دفع بالمجتمعات البشرية من أهل هذا العالم لتكون فى منظرها وجوهرها مضطربة فى وحدة غير متماسكة فى مفرداتها ضالة فى وجهتها عاجزة عن غايتها بعيدة كل البعد عن حقيقتها فاسدة كل الفساد فى رسالتها .

إنه رغم المدينة الحديثة ونظم الحكم الجديدة فإن الدنيا مليئة بملايين النفوس البائسة وذوى القلوب التعسة والأبدان المجهدة والعقول المعذبة بكثير المشكلات والتى لم يهب عليها يوما نسمة من نسائم السكينة والسلام الروحى العميق .

أسس السلام العالمى :

أولا : لا بد من الاعتراف العالمى بحرية وقدسية الذات الانسانية .

لقد خلق الانسان من النور والظلمة فهو روح خالده وذات قدسية وقبس من الروح العظيم وأن بنى الانسان يستطيعون أن يرتفعوا بأرواحهم ويصلوا إلى أعلى درجات الحكمة والامامة وأعظم معارج اليقين فيصنعوا المعجزات التى تغير وجه الحياة البشرية كما أن لهم بإرادتهم أن يصبحوا شبه بهائم إذا أسروا فى شبحية وجودهم الظلمانى فدارت جهودهم فى الحياة وفى الفكر والعمل والتوافق والتنافر على التفكير فى وهم خدمة الجسد البشرى وحاجياته .

وإن تنافر أهل تلك الأجساد يصدر عنه ظلمه تخفى معالم الطريق وتنشر القنوط والبغضاء بينهم ويعم اليأس والصراع ويتفشى الخداع والقطيعه والغفلة وينكشف وهم الذات وتبدو فارغه فاقده معناها من الحق الأكبر سجينة فى وثنية الجسد حيث لا أديان ولا إيمان بقدسية الذات ودوام الانسان .

إذ آمن الحكام بأن الانسان هو صخرة البداية وموجه النهاية وأن الحضارة ماجاءت إلا لخدمته لترتفع به إلى مايليق بإنسانيته وأن الكون بأسره خادم له ليكمل رحلته القدسية ولا ينشغل عن المطلوب بغير المطلوب كما قال تعالى (يا ابن آدم خلقت الكون من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلى فلا تلعب) بذلك يبين أن الانسان فى نظر الله فوق الكون بل أعظم منه لأنه قبس إلهى وزائر متعجل وضيف راحل ليس له فى الكون قرار وحرى بذلك الكون أن يخدم ضيفه ويكرم زائره وحرى بالانسان ألا يلهو ويلعب فيضل السبيل ويفقد غايته ويخسر دورته فيرجع كما قدم فيندم حيث لا ينفع الندم وما على الحكام إلا الاهتمام بالنفوس والعقول قبل الاهتمام بالأجساد التى هى هياكل للنفوس والعقول وليست هى الانسان .

ثانيـــاً : التخلص من العقائد الفاسدة وتجار الأديان .

لقد بعث الله الرسل والأنبياء وأنزل الأديان ليعبد الله فى أرضه وذلك يبين من قوله تعالى (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وما العبادة إلا طاعة الله التى هى إسلام وخضوع كما قال تعالى (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) لجميع الأديان السماوية والفطرية إنما هى إسلام لله وخضوع وإنابة كى تحيا النفوس وتتحرر العقول وتستقيم الأشباح وتتوحد الارواح ويلتقى أمر الارض بأمر السماء فى طريق الحرية والحياة والسلام فسيتقيم لأهل الارض أمرهم وينقضى شقاء عوالم الروح التعسه .

لقد أهتم العالم بأنبياء حملوا إليه رسالات من السماء قاوموا وهزموا أمام حقائقها فعظموهم وأجلوهم ولكن سرعان ما نسى ما حملوه إليه من تعاليم صادقة وحقائق

واضحة ورجع للتشبس بشهواته المادية ولذائه الوثنية فصار العالم أوثانا في عبادة أوثان أعداء في ثوب خلان وجهله في ثوب علمان وغفلة في مسوح رهبان وما ذلك الذي أصاب العالم إلا وليد سلطان محترفي الأديان الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وغيروا مجرى رسالات السماء ولن يكون أمام الانسانية إلا أن تقصد نبع الأديان العذب ومقصودها المباشر لترتشف منه الحقائق الالهية عذبة سائغة ليس فيها مرارة التعصب أو خبائث السخافات الدينية الباطلة التي صنعها تجار الأديان في مختلف العصور ولم يكن لهم هم إلا القضاء على الدين كما قال تعالى في كتابه الكريم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) .

بيد أن رجال الفكر والدين إذا سعوا لبيان الحقائق الروحية الكاملة في الأديان للايمان بها لحدث أكبر انقلاب في تاريخ الانسانية نتيجة لتلك الثورة الروحية عندئذ تتحرر الانسانية من عبوديتها للعقائد الفاسدة وتتخلص من بطش المادية البغيض وسلطان تجار الأديان ويعم الأرض السلام الذي هو ثمرة طيبة لانتشار القيم الروحية الهائلة الكامنة في الأديان التي يملأ سلطانها المعمورة ويكون قد رفرف السلام بأجنحته على الأرض ووري الحرب قد خمدت نيرانها إلى غير رجعة وكم سجن الملايين من البشر في سجن العقائد المحرفة المليئة بالخرافات والأباطيل فعميت عيونهم عن العدل والصدق وكلمة الحق وخسروا الجانب الأسمى من نفوسهم فصاروا عبيدا لتجار الأديان يقودوهم للإنتحار الجماعي إلى جحيم الحروب فلا يبقى لهم شبح ولا روح وإن بقى لهم ذكرى فهي الوحشية وإن تركوا ثروة فهي الخراب وإن خلفوا تراثا فهو وصمة العار على جبين الحضارة الانسانية والخزي والاهانة لكل خلف .

إن سبيل السلام في محو روح التعصب بين الفرق والأديان والأمم ونزع بذور التفرقة لتسير كل الأمم في محبة الله وطاعته وهو (السلام) ومتابعة رسله والمؤمنين به في دين قيم من الفطرة مدرك من العقل محسوس النفس ميسر النوال لا ينكر ولا يقهر .

ثالثـــا : نشر التعاون والتعارف والبر بين البشر :

ويتجلى ذلك فى قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وكم يثمر التعاون بين الافراد أطيب الثمار وكم يقضى على المشاكل فلا يظهر فى المجتمع مظلوم ولا محتاج ولا حاقد ولا حاسد وكم يرفرف به الأمن والطمأنينة والسلام فى سماء حياة البشر فلا كراهية ولا نزاع ولا حروب كذلك قال الرسول ﷺ « الناس بخير ما تعاونوا » إذ الناس سواء كانوا يعيشون فى أسرة أو قبيلة أو مدينة أو دولة وعالم جامع للبشر كلهم بخير وسلام وأمان وسعادة إذا تعاونوا أى يأخذ كبيرهم بيد صغيرهم ويحس غنيهم بفقيرهم ويساعد قويهم ضعيفهم فيظهر الوجود البشرى جسدا واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى كذلك قال المصطفى ﷺ (ما أحسن من محسن مسلم ولا كافر ألا أثيب) كذلك قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) - (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فالشعوب خلقت لتتعارف وتتعاون وإذا تكشفت الحقيقة من الوحدة الانسانية وظهرت قدسية الإنسان قلبا وقالباً وتكشفت شجرة الجنس المباركة لا شرقية ولا غربية لتأخذ وضعها هيكلا مباركا فى وحدة إنسانية لا شرف فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى وظهرت شخصية الإنسان الروحية ليحررها وارادته القدسية ليوجهها واستقامته العقلية ليحققها ومتى تحققت للبشرية حقيقة نفسها فإن حصون الماديين قد دكت ونظريات الطبيعيين قد تبددت ويعم على الأرض سلام الله .

رابعـــا : نبذ الإستعمار بمختلف صورة وتجار الأسلحة :

إن البشرية الأرضية تدور فى أفكارها وأعمالها واتفاقها وتنافرها حول هدف واحد هو المنفعة المادية بقصد خدمة الجسد وتوفير أسباب الراحة والسعادة له فهى تقاتل من أجل الهوى الذى هو أبغض صنم عبد على الأرض من أجله

تشن الحروب وتباد الجماعات البشرية وتئن من ويلات الذل والمسكنة والاضطهاد .

ان الاستعمار أعمته ثروات الشعوب الضعيفة فانتزع الرزق من أفواه الجياع من تلك الشعوب ولا يعلم أن القتل خطيئة وأن الحياة من شأن الروح الأعظم وليس من حق أى إنسان التداخل فى طول غربة الآخرين الأرضية عن عالمهم الأصيل وإن الاستعمار إذا تلاشى بصورته القديمة فإنه ما زال يلبس أثوابا جديدة لا تمنعه من تحقيق غرضه الأسمى وهو إلتهام أرزاق الشعوب الضعيفة وجعلها امتداداً لأرض نفوذه فشملها بثقافته ونشر فيها لغته وعقيدته وأسلوب حياته وكل ما هو ظاهرى لحضارته فأخذ لنفسه من الضعفاء ما يفيد وأعطاهم ما يضر وجعلهم فرقا وأحزابا متنازعة وأشعل بينهم الحرب وجعلهم وقودا لنيران أسلحته حتى لا يفيقوا من غفلة ولا يسلموا من دمار وصاروا سوقا رابحة لأسلحة التخريب والبطش والهلاك وقال راسل لا بد أن تتنازل القوات الدولية الكبرى عن سياسة الاستعمار والتوسع وتنمى فى نفوس الأجيال الجديدة نوعا من الولاء العالمى كى تحقق السلام .

خامساً : وحدة الجنس البشرى . ويتمثل ذلك فى قوله تعالى (أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) فالناس مهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم وعقائدهم وبلدانهم فكلهم خلقوا من نفس واحدة يجمعهم المصدر الواحد وقد تأيد ذلك بقول الرسول ﷺ (كلكم لآدم وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) فالجنس البشرى فى نظر الإسلام مهما فعلت فيه عوامل الفرقة والإختلافات فإنه من نبع واحد بل وحدة واحدة ترد لمصير واحد ورب واحد هو رب العالمين رب الجنس البشرى وهو العالم الوسطى أى الأمة الوسط ليت ذلك فحسب بل رب العالم العلوى والعالم السفلى ومن جماع تلك العوالم يتكون ثالوث الوجود

هكذا يتقدم الجنس البشرى إذا اتحدت ذوات كينونته بإنسانية وجوده فيرقى إلى معراج كماله فى ظاهر بشريته وباطن حقيقته وينال سلام الوجود فى مؤقت تواجده ويحظى بسلام الموجد فى حيوات تخلده فلا يضل الجنس البشرى ولا يشقى ولا يكون بعضهم لبعض فتنة فيعرفون باعث السلام ومصدر السلام ويسلكون الطريق ويجربون التحقيق ويعرفون الوحدة خلف إمام واحد ورب واحد نحو سلام واحد لا يذوقون به تمزق الفرقة ولا دمار الصراع ولا نكسات الحروب ولا ويلات القتال ولا بؤس اليأس ولا شقاء النفوس ولا جموح العقول .

كم خاب ظن أنصار المدينـــة الحديثة وما جاءت به من مخترعات وعلوم ومعارف وتقدم فى النظم السياسية والاقتصادية عندما زاد بها شقاء الإنسان ودماره ولم ينال بها السعادة والسلام ولم تحل بها مشاكل العالم المتزايدة ذلك العالم الذى هو فى حاجة أولا وأخيراً إلى الإيمان بالإنسان أى بدين الإنسان بدين حب الإنسان ذلك الإنسان الذى خلقه الله وأحسن صورته وجعله خليفة على أرضه فيحب الإنسان يحب الله إذ لا يعقل الادعاء بحب الله الذى لا يرى فى الوقت الذى يحارب فيه الإنسان الذى ظهر أية الخلاق فى كونه إذ الحياة ما كانت تستحق الحياة إلا لأنها فرصة لخدمة الإنسان دون نظر إلى طبقته ولونه وجنسه وحسبه ونسبه وثروته وثقافته لأن الله محبة ومن أحب الإنسان أحب الله ومن حارب المخلوق فقد حارب الخالق .

وخلاصة القول : أن الإسلام جاء دينا للإنسانية التى لا تعرف الخلاف والفرقة والتشتت والنزاع والغضب أيا كان نوعـــه لخلق روح الإنسان الذى لا يعرف صراعا ذاتيا ولبعث الإنسانية من مرقدها بعثا تطهر فيه جسداً واحداً فى مسيرة لا يحول بينها وبين سبيل السلام والسعادة حائل .

سادسا العدل : قال ﷺ « العدل أساس الملك » ودولة الكفر بالعدل تدوم ودولة الإسلام بالظلم تزول وكيف الملك يقوم على أسلاب الضحايا وأنات المظلومين باغتصب ثروة الملايين وادخر لهم عدة الدمار والخراب كيف يغمض جفن لظالم كيف يقر له قرار كيف يشعر بالأمن والسلام وهذا القانون السماوى يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (كما تدين تدان) — (من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ) .

والحق أن الظالم مهما عاش فإن حياته كلها خوف وفزع وقلق وطمع ويأس وهلع وانحراف وجشع فلا يعرف الغنى مهما جمع ولا يذوق حداً للشهوة ولا يحس نهاية للذة بل هو عابد دائم العبادة لصنم هواه مهما طالت به الحياة والصنم المعبود قد يكون سلطة أو جاه أو مالا مسلوبا من أفواه الجائعين العراة

والضالمين الحفاة وقد يكون نهرة ولو بين الطغاة وجمع الزناة أو الكذبة من الدعاة أو الظلمة القساة أو الفسقة العصاة أو الخونة من الرعاة حقا الصنم اما بده أصمة وأعماه أزله وأرداه أحطه وماسماه وأفقره وما أغناه .

إذن أى سلام يشعر به الفرد وأى أمن يسعد به وأى طمأنينة يذوقها إذا لم يسود العدل مملكة ذاته ويحكم كل سكناته وينظم سائر حركاته ويهدى جل تصرفاته ويكون قبلة عباداته وغاية مثله ومعتقداته وجوهر دينه وكل أمنياته فتعلوا لله مقدساته وتصان له حرماته وتزدان الدنيا بدعاته لتكون بالسلام جناته كيف يكون حال الأسرة إذا فقدت العدل ؟ لن تكون إلا بيتاً لجمع الأعداء لا الإخوان وميداناً للحرب لا أرضاً للتعارف ومكاناً للكراهية لاخلية للألفة ومستقراً للصراع لا مقراً للمحبة وتكون أرضاً للدمار لا للعمار ومصدراً للعنف والخصام لا باعثة للألفة والسلام .

ماذا يكون حال الدولة إذا اختفى منها العدل بكل صوره حيث تجوع الملايين وتكد وتشقى وتمرض وتعرى وتسلب الضرورى من القوت وتئن من المظالم وتصرخ وتقيد بذل وعار ثلاث أغلال إلى الأبد هى الفقر والجهل والمرض بينما القلة من المستغلين ترفل فى النعيم غارقة فى الملذات السافلة وأعمال الشر والعدوان هكذا تكون أحوال الأمم إذا فقد منها العدل أمة غنية قوية تنفق الأموال فى الشر وغرور السيطرة وأمة فقيرة ضعيفة يموت أهلها من الجوع والعوذ ليت ذلك فحسب بل يضرب على اسوار التبعية للأمه الغنية فضيع قيمة الإنسان وتباد كرامته ويزول معنى السلام وتضحى المساواة بين بنى الإنسان قولا عديم الأثر أو لونا من الخرافات والأساطير .

دور المدنية الحديثة فى السلام : لقد فقدت المدنية الحديثه الجانب الروحى فى الإنسان وسمت بالعلم تخترع الآلات منها ما يخدم الحياة ومنها ما يدمرها دماراً يحرق الأخضر واليابس وذلك بدافع الأثرة والتسلط والبغى وسيطرة الدول المتقدمة على ما دونها من الدول بصورة لا تتفق مع إعلانها باسم السلام

وصدق فون بابن الألمانى إذ قال أننا نقف عى حافة هاوية ذلك لأننا تعلقنا بأهداب العلم وظنناه كل شىء حتى استعبدنا العلم وبالغنا فى الآله والاختراع حتى صرنا عبيد الآلة والاختراع ولم تبق إلا بارقة أمل وحيدة فى النجاة وهو أن نؤمن أن هذا الكون له خالق كما قال جود الإنجليزى أن القوانين الطبيعية منحتنا قوة استعملها بعقل الأطفال والوحوش أنظر إلى المقاصد التى استعملت لها الطيارة وتستعمل فى المستقبل إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وإلقاء الغازات السامة وتقطيع الضعفاء إربا إربا وهذه مقاصد الشياطين والحمقى والمجانين .

إن المدنية الحديثة فشلت فى تحقيق السلام عندما استخدمت آلات الدمار فى شن الحروب وظنت أن بالعنف تحل المشكلات وإن ما أوتيت البشرية من علم ومعرفة وكشف إنما هو بداية الطريق لعلم الله الذى قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) هل نجحت المدنية الحديثة فى منع الحروب العالمية التى وقعت والحروب التى ما زالت تقع ؟ الحق أنها فشلت لأنها مدنية استخدمها الإنسان الذى خسر الله وخسر نفسه وحول النافع إلى ضار والراحة إلى شقاء وبدى وكأنه مجنون أو حيوان وصدق الله العظيم إذ قال فى كتابه الكريم (كالأنعام بل أضل) لقد ارتفعت الأمم بالمدنية الحديثة فى مجال العلم وانخفضت فى مجال الأخلاق وسادها الغدر والخداع بل أصبحت العلاقات المادية هى التى تحكم الأفراد والأمم وأساس الاجتماع والفرقة كما أن العلم الحديث ارتكب أبشع خطيئة إذ فصل بين الأخلاق والسياسة فكان الإنسان هو الوقود الذى قدمه وما زال يقدمه ساسة الدول طوعا وكرها وقوداً لإشعال جحيم الحروب .

إن الإنسانية إذا أرادت السلام الحق عليها أن تعود إلى فطرتها التى فطر الله وترتد إلى الله لتعلم حقيقة نفسها وأن الإنسان ما خلق ليكون جسداً يعيش كالسائمة ليهلك من أجل لذاته وأن تسلم زمامها إلى الله معلنة إفلاسها وتتجه إلى دين يقر الإنسان كرامته وحريته وقدسية وجوده ومساواته مع سائر البشر ويدين بالرحمة للكافة والعدل للجميع وتجريد الإنسان من هوى نفسه ليعمل لصالح الآخرين بيد أن ذلك المطلب الإنسانى الأسمى (السلام) لن يتحقق ..

إلا بدين محمد ﷺ الذى قال « إنما أنا رحمة مهداة » ويقول الله الذى ربط بين السلام والنور فى دستور الاسلام (لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

هكذا أبان الله لنا سبحانه وتعالى سبل السلام فبدت منه نوراً بكتابه المبين يهدى البشرية إلى طريق رضاه ويخرجها من ظلمات الشك والحيرة والقلق إلى سبل الايمان واليقين والسلام .

رأى الكسيس كاريل فى المدنية الحديثة : لقد قال ذلك العالم أنه يجب أن يكون الانسان مقياساً لكل شىء ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هى إحدى الكوارث التى عانت منها الانسانية فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة أننا قوم تعساء لأننا ننحط عقليا وأخلاقيا إن جماعات الأمم التى لقيت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ولكنها لا تدرك ذلك إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العالم حولها فالمادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلى فحسب أنها تسحق أيضا الشخص العاطفى واللطيف وأولئك الذين يبحثون عن أشياء أخرى غير المال فالحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة فى النشاط العقلى وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة فى أغلب بنى الانسان إلى النقائص الموجودة فى جوهم السيكولوجى إذ أن تفوق المادة ومبادىء دين الصناعة حطمت الثقافة والكمال والأخلاق إذ امتناع نمو وجوه النشاط الثقافى والدينى والجمالى يخلق أشخاصا فى المرتبة الدنيا ذوى عقول ضعيفة ومريضة .

فالحضارة آخذه فى الانهيار لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا فقبلنا هداياها بلا تميز ولا تبصر وأصبح الفرد ضعيفا متخصصا فاجراً غبيا غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته كما أن جناية الحضارة وسبب فسادها وانهيارها يكمن فى رفضها ابتداءاً أن يكون الدين منهجا للحياة أى رفضها لألوهية الله .

لقد خلقت الحضارة قلقا على المستقبل فى مجتمع مادى متناحر وخواءاً روحيا وأمراضا عصبية وعقلية ونفسية وشذوذاً وجنونا وانحرافا وجريمة وانتحارا وظهرت آثار التوجيه إلى حيوانية الانسان وماديته وسلبيته وإطلاق شهواته وغرائزه حره من كل ضابط وظهرت اللامبالاة والانحلال والسلبية والدكتاتوريات وحياة القطيع التى لا هدف لها إلا اللقاح والفساد والطعام والشراب ومختلف الشهوات وقد أدت البشرية ضريبة الحضارة حروبا عاتية ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعذبين ومجانين وأزمات تلو أزمات ودعارة وأبناء غير شرعيين وقلق واضطراب وحيرة وشك وعدم استقرار وكفر وأمراض تجر الناس إلى الموت لا حصر لها هكذا البشرية بعد أن آمنت بالجماد وكفرت بالانسان وبالله أتاها ما أتاها ويصدق فيها قول الله (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) .

لقد قال الكسيس كاريل إن الانسان يعلو كل شيء فى الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا لن تلبث أن تزول إن أبناء الحضارة المادية شهوانيون عاطفيون قساة مجردين من الإحساس الأدبى والدينى والشعور بالجمال كما أن الشذوذ الجنسى آخذ فى الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانبا ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب والعدل والظلم فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان وليس هناك من يبدى اعتراضا على وجودهم كما أنه من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم ومشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى لأن أمراض العقل أكثر خطورة من أمراض السل والسرطان

والكوليرا والطاعون لأنها تزيد عدد المجرمين وأن كثرة مرضى الأعصاب والنفوس دليل على النقص الخطر الذى تعانى منه المدينة العصرية وقد قال محقق نرويجى أن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ فى السويد يتعرضون لإضطرابات عقلية إذ النكبة العظمى التى ظهرت فى حياة المدنية المعاصرة هى طغيان الشهوة ورواج الإباحية وما يبعث على الصلة الجنسية من فن كله إغراء وتهييج للغرائز بقصد جمع المال وذلك فيه خراب للنظام العائلى وتقويض لبنيانه كما أن الرغبة فى العزوف عن الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غير المشروعة الدائمة والعارضة بين الرجال والنساء يدل على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية وقد نشر فى مجلة أمريكية إصلاحية أن هناك عوامل شيطانية ثلاثة تحيط ثالوثها بدنيانا اليوم وهى جميعها تسعير سعير لأهل الأرض أولها الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحته ورواجه بسرعة عجيبة ثانيها الأفلام السينمائية التى لا تزكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب بل تلقنهم دروساً عملية فى بابه ثالثها إنحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء الذى يظهر فى ملابسهن وعريهن واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا بد أن يكون مآل هذه المفاسدة زوال الحضارة فإن لم نحد من طغيانها فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ورقص وغناء .

ويقول ألكسيس كاريل أن الإنسان يجب أن يكون مقياساً لكل شىء فالقلق والهموم التى يعانى منها سكان المدنية المعاصرة تتولد عن نظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتأخر علوم الحياة عن علوم الجماد والعلاج الوحيد الممكن لهذا الشر المستطير هى معرفة أكثر عمقا بأنفسنا وما دامت الأحوال الطبيعيه للحياة قد حطمتها المدنية العصرية فقد أصبح علم الانسان أكثر العلوم ضرورة .

لقد ظهر فى المدنية المعاصرة إلى أى مدى ضل الانسان طريقة ولسى ذاته

وجهل حقيقته وأطفاه زخرف ماديته فشقى فى حياته وصدق قول الله (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) .

لقد جاء الاسلام رافضاً أن يعيش الإنسان عيشة البهائم أسير لذاته عبداً لشهواته فالإنسان يكون مقهورا بها لا يملك معها إرادته لقد جعل الاسلام الانسان أكرم وأعظم كائن كونه الإله فالإنسان يكون إنسانا حقا إذا ساس بالعقل رغباته وسيطر على جموح شهواته وحكم نزعاته وضبط بالروح مادياته وليس الانسان هو ما قال عنه التشريع (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)

الانسان فى الاسلام هو ذلك العقل السامى والروح المشرق والنفس الطاهر الذى يرتفع بمادياته إلى سماء الروح ولا يقصد من وجوده إلا حياة الروح فالمادة هى اللباس وليست هى الملبوس فالمادة هى الاناء وليست المشروب فالمادة هى الوسيلة وليست هى المقصود .

العدالة فى الاسلام

العدالة هى مبدأ من المبادىء التى يقوم عليها نظام الحكم فى الاسلام وقال عنها الإمام بن القيم « أنها جزء من الشرع أو الدين يكون حيث تكون كما قال الله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (إن الله يأمركم بأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) — (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) كما قال علماء الفقه الاسلامى أن العدالة أحد الشروط التى يشترطونها فى الامام[1] كما قال صلى الله عليه وسلم (وأحب الناس إلى الله يوم القيامة أمام عادل)

---

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢ ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٣ ص ٣٥٥

وكما أن الإسلام يحض على العدالة عند النفس أى المرء ذاته وحتى مع الأعداء وذلك فى قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) كما قال عليه الصلاة والسلام « من آذى ذمياً فأنا خصمه » ولذلك اشتهر العرب المسلمون فى صدر الإسلام بالعدالة والتسامح بين طوائف المسيحيين فى البلاد التى كانت خاضعة للرومان وذلك باعتراف علماء الغرب أمثال [السير توماس ارنولد] أستاذ التاريخ فى جامعة لندن فى كتابه الدعوة إلى الإسلام .

كما أن الإسلام لا يشترط العدالة فى رجال القضاء فقط بل فرضها على كل من يملك سلطة وذلك كما يفسر به المفسرون فى الآية الكريمة (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) كما أن العدالة تشمل تولية المهام أو المناصب أصلح الأفراد للقيام بها على خير وجه إذ أنكر الإمام ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية طبعة ١٩٥٥ ص٦ [إن واجب ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده كما قال الرسول ﷺ « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » . إنا « لا نولى أمرنا هذا من طلبه » .

كما أنه من مبادىء العدالة لا يجوز توقيع عقوبة على فرد إلا لجرم ثبت ارتكابه وعلى ذلك فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بحلق رأس نصر بن حجاج ونفيه من المدينة لا لجرم ارتكبه إنما لتشبيب النساء به[1] . حرصاً على المصلحة العامة التى تتمثل فى مبادىء حماية الدين والأخلاق وقد حرص عمر بن الخطاب على تحقيق العدل للرعية فجمع مرة كعادته عماله أى ولاته ثم سأل الناس . إذا كان لأحدهم شكوى من أولئك الولاة فقام رجل وقال لعمر إن عاملك فلانا ضربنى مائة صوت .

---

(١) أى لأنه كان وسيم الوجه ويخشى فتنة النساء به راجع الطرق الحكمية للسياسة الشرعية للامام ابن القيم ص١٦ .

انواع العداله

العدالة فى الأسرة لقد رفع الاسلام من كيان الاسرة وذلك عندما رفع من مكانة المراة وساوى بينها وبين الرجل فى مسئولية الرعاية فقال ﷺ (الرجل راعى فى بيته والمراة راعية فى بيت زوجها مسؤله عن رعيتها) وقال تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم)

وقد حكى أن امرة قدمت الى الرسول الكريم ﷺ وقالت له ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة إنا معشر النساء محصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم وانكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى عز وجل وان احدكم اذا خرج فى سبيل الله او حاجا او معتمرا حفظنا لكم أولادكم وغزلنا أثوابكم وربينا أولادكم افنشاركم فى هذا الاجر والخير فقال الرسول ﷺ لها (افهمى ايتها المراة وأعلمى من خلفك من النساء ان حسن تبعل المراة يعدل ذلك كله) .

هكذا الاسلام ساوى بين المراة والرجل فى الثواب بان جعل الصالحين كالصالحات والقانتين كالقانتات والتائبين كالتائبات والمؤمنين كالمؤمنات الا ان الله سبحانه وتعالى جعل القوامة للرجال فقال (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم) .

ومن عدالة الاسلام ان وضع حقوقا وواجبات يلتزم بها كل من الزوج والزوجة لتنمو الاسرة المسلمة بعيدا عن موجات التفكك وتيارات الانحلال فاشترط فى الزوج ماياتى (١) أولا : — حسن الخلق والدين : —

أ ـ يعامل الزوج الزوجة بالمعروف كما قال تعالى (وعاشروهن بالمعروف)

ثانيا : — التوجيه : — اى يبين لها أحكام الكتاب والسنة ويحذرها من السقوط فى هاوية المحرمات وان لم يكن عالما بالدين عليه ان يسهل لها سبل دراسة

---

(١) راجع فلسفة التدبر الصوفى للمؤلف ص ٢٤

الدين والعمل به عملا بالقول الكريم (قوا انفسكم واهليكم نارا) أى من واجبات كل زوج ان يقى نفسه واهله من نار المعصية بالدخول فى طاعة الله والبعد عن ما حرم ويضاف الى ذلك قول الرسول ﷺ من صبر على سوء خلق امرأته اعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ومن صبرت على سوء خلق زوجها اعطاها الله مثل ثواب آسية مرأة فرعون) لحسن الخلق كف الاذى عنها واحتمال الاذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الاسلام ﷺ وكانت عائشة تغضب وتقول للرسول انت الذى تزعم انك نبى فكان رده على تلك الاساءة ألابتسامة والصفح وقد قال المصطفى ﷺ (من زوج كريمته لفاسق فقد قطع رحمها) .

ثالثا : — الانفاق : — بالانفاق يكون للرجال القوامة على المراة ويتأيد ذلك بقوله تعالى (وأسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) وقال رسول الله (اتقوا الله فى النساء فانهن عوان فى ايديكم اخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله لكم عليهن الا يوطئن فراشكم احدا تكرهونه ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وروى ان رجلا جاء الى الرسول ﷺ وقال ماحق المراة على زوجها فقال (يطعمها اذا طعم ويكسوها اذا كسى ولا يهجرها فى المبيت ولا يضربها ولا يقبح) وحكى ان هند زوجه أبى سفيان قالت يارسول الله ان ابا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة مايكفينى ويكفى بنى الاما أخذ من ماله بغير علمه فقال ﷺ (خذى من ماله بالمعروف مايكفيك ويكفى بنيك)

والنفقة الزوجية تتحقق بالعقد الصحيح بشرط وجود الإحتباس والاستعداد له طالما ان الزوجة لم تمانع من الانتقال الى بيت الزوجية فاذا لم يتم الاحتباس ولا الاستعداد له فلا نفقة [١] وقد وجبت النفقة الزوجية بالكتاب اذ قال تعالى (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) اما القياس فانه من القواعد

---

[١] الأحوال الشخصية لأبى زهره ص٢٤٣

المقررة فى الفقه ان من حبس لحق غـــيره فنفقته واجبه عليه وقد انعقد اجماع علماء المسلمين على ذلك من عهد النبى ﷺ الذى اوصى خيرا بالنساء فقال (خيركم خيركم لاهله) (كفى بالمرء أن يضيع من يعول) وانها لاخطر مسئولية ان يضيع الراعى رعيته ويخون الميثاق الغليظ الذى قال الله عنه (واخذنا منكم ميثاقا غليظا).

مايشرط فى الزوجة : - اولا :- حسن الخلق قال أحد الحكماء لا تنكحوا من النساء سته لا أنانه ولا منانه ولا حنانه ولا حداقه ولا شداقة ولا براقة والانانة هى كثيرة التمارض المنانه هى التى تمن على زوجها بما فعلت والحنانة تحن لزوجها القديم واولادها والحداقة ترمى إلى كل شوء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه والشداقة كثيرة الكلام والبراقة محبه لاظهار بريق زينتها . وقال الامام على ابن أبى طالب عليه السلام شر خصال الرجال خير خصال النساء البخل والزهو والجبن ، والمراة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها وإذا كانت مزهوة إستنكفت ان تكلم الناس بكلام لين مريب وإذا كانت جبانه اتقت مواضع الريب .

ثانيا : - قلة المهر : - قال ﷺ (شؤم المراه صداقها) فالمراه الشؤم هى التى تطلب من زوجها صداقا يرهقه يدفعه للاقتراض أو بيع مايملك أو يسلك المسالك التى يخسر بها دينه وعرضه فيهلك وقال ﷺ (خير النساء احسنهن وجوها وارخصهن مهوراً) وقال عمر بن الخطاب لو كانت المغالاه فى مهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله الذى تزوج بعض النساء على عشرة دراهم وكما يكره المغالاه فى المهر يكره السؤال عن مال المرأه من جهة الرجل اذ حكى عن أحد الصحابة انه من تزوج امرأه لمالها فهو [illegible]

[illegible] : - ان تكون من بيئه صالحة : - قال ﷺ (تخيروا لنطفكم فان العرق دساس)

(اياكم وخضراء الدمن قيل وماخضراء الدمن يارسول الله قال المرأه الحسناء فى المنبت السوء)

رابعاً : ــ الاتكون قريبة : ــ قال ﷺ (لاتنكحوا القريبة فان الولد يخلق ضاويا)

خامساً : ــ الطاعة والدين (١) : ــ قال رسول الله ﷺ (لو أمرت احدا ان يسجد لاحد لأمرت الزوجة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) (أيما امراة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنه) (اعظم الناس حقا على المراة زوجها وأعظم الناس حقا على الرجل امة) وقد اضاف الرسول ﷺ طاعة الزوج إلى أركان الاسلام بالنسبة للمراة فقال (إذا صلت المراة خمسها وصامت شهر ها وحفظت فرجها واطاعت زوجها دخلت جنه ربها) والطاعة هنا واجبة على الزوجة فيما أحبت وفيما كرهت إلا اذا امرت بمعصية فلا سمع ولا طاعة (لاتنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ولا لمالها فلعل مالها يطغيها وانكح المرأة لدينها) فالمرأة عديمة الدين تحيل حياة الزوج إلى جحيم وقد يخسربها بقية دينة الذى أراد ان يكملة بها .

هل فى تعدد الزوجات عدالة ؟ يقول اعداء ذلك الدين انه يبيح تعدد الزوجات وفى ذلك اهانة للمراة واثارة لدواعى الغيرة وسببا للاغراء بالعداوة والبغضاء وانتشار الضرر بين الزوجات والابناء وبين الآب وابنائه والعكس ومنه يتولد العديد من الرزايا والمصائب التى يقشعر من هولها الضمير الحى والحقيقة ان سبب تعدد الزجات ما كان الا لمجرد التنقل فى اللذه واطلاق حبل الشهوة على الغارب دون تفكير فى بناء جيل سليم من كدورات الحقد واثام الكراهية وأثار الظلم ذلك ان الزوج يفضل زوجتة الثانية واولادها على زوجته الأولى واولادها وهذا هو الظلم بعينه .

وقد قال تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وان خفتم الاتعدلوا فواحدة) وقد اشترط الاسلام العدل فقال تعالى (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) وحرى لمن يريد النجاة لنفسه من

---

(١) رسول الاسلام المؤلف ص ١٢٩

الظلم ويحقق العـــدل الذى اراده الله فى اسرته ان يتجنب التعدد فى الزوجات اذ جزم الاسلام بانه ليس فى استطاعة أى زوج مهما كان ان يعدل بين الزوجات ولو حرص على تحقيق العدالة المادية التى يملكها وقد قال ﷺ (من كانت له امرأتان فمال الى احدهما دون الآخرى وفى لفظ لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شدقيه مائل)

هكذا يحرص الاسلام على تحقيق العدالة فى الاسرة فقطع بانه لن يستطيع كائن من كان ان يحقق العدل ظاهرا وباطنا بين الزوجات فلم يحرم التعدد ولكن دعى لمن يخاف الظلم واثاره المدمرة للزوج والزوجات والاولاد وما يجره من انحلال وعداء وتفكك فى الدنيا وسوء حال وعذاب يوم الحساب لكل راعى ضيق بشهوته فخان الأمانه وظلم فى رعايته الى تجنب التعدد فى الزوجات حرصا على نيل العدالة المطلوبة .

تأديب الزوجة : — للزوج فى الشريعة الاسلامية أن يؤدب زوجته بصفة عامة على المعاصى التى لاحد فيها وان له تعزيرها على ترك فرائض الله اذا كانت مسلمة كترك الصلاة والصوم (١) كما أنه لا تضرب خوف النشوز قبل إظهاره دائما لإظهاره فعلا ويرى مالك وابو حنيفة أن الزوج لا يجوز له ضرب زوجته لأول معصية اذ على الزوج ان يثبت أن زوجته عصت قبل الضرب مرتين وانه وعظها فى أولاها وهجرها فى الثانية عملا بقوله تعالى (فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن) والمقصود بالواو الترتيب أما الرأى الرجح فى مذهبى الشافعى وأحمد أن من حق الزوج ضرب الزوجة سواء تكررت المعصية أم لم تتكرر لأن النص جاء لمطلق الجمع والترتيب واشترط فى الضرب أن لا يسود الجلد ولا ينهر الدم وان لا يكون على الوجه ولا على المواضع المخوفة كالبطن واذا كان التأديب على أمر تعاقب عليه السلطات العامة وعرض الأمر عليها سقط حق الزوج فى تأديب الزوجة (٢) كما أن حق تأديب الزوجة لا يتوقف ، عند سن

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى المجلد الثانى جـ٤ ص ١٤٦٥ اسنى المطالب جـ٤ ص ١٦٢

(٢) مواهب الجليل ص ١٥

بخلاف الصغار فإن حق التأديب ينتهي بالبـــلوغ ويجب أن يراعى الوسط في التأديب فمن يخرج عن حدود التأديب في وسط قد لا يصل إلى حدود التأديب في وسط آخر .

هل في الطلاق عدالة ؟ يقول أعداء الإسلام أن الطلاق أسوء مافي ذلك لدين ذلك أنه متروك للزوج يوقعه وقتما شاء دون ضابط ومن ثم فان الأسرة المسلمة لا أمان في دوامها ولا استقرار إذانها قائمة على أرض معرضه لما يزلزلها ويجعلها أثراً بعد عين فلا يبقى إلا مطلق ومطلقة وأطفال مشردون ضحايا قضى عليهم الطلاق وما أجاب أعداء الإسلام على الطلاق إلا بعبارة واحدة أنه ظلم وفساد في الأرض جاء به الإسلام . ولقد اشترط الإسلام في الزواج الخلق والدين فقال الرسول ﷺ « إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساداً كبير » وكذلك اشترط في الزوجة الدين فقال رسول الله ﷺ فاظفر بذات الدين تربت يداك » — « ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحه إذا نظر إليها سرته وإذا غاب عنها حفظته وإذا أمرها أطاعته » كما اشترط عند الحنفية الدين والنسب والغنى ويضاف إلى ذلك عند الشافعية تقارب السن كما أن المرأة منحت في الإسلام حرية اختيار الزوج ولها الرفض وحكى أن عمر بن الخطاب خطب بنت عتبة بن ربيعة فرفضت قائلة أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينيه وطلب من عائشة زواج أختها أم كلثوم فرفضته قائلة أن عمر خشن العيش شديد على النساء وقد أمر الرسول ﷺ بأن يأخذ المسلم زوجته بجمعها لا تداريق فقال « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها بالآخر » والفرك البغضاء التي تؤدي إلى الطلاق كما أبغض رسول الله الطلاق وبغضه للناس فقال ﷺ (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) .

وقد قال الكمال بن الهمام في فتح القدير شرع الله الطلاق الخلاص عند تباين الأخلاق الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى فإذا لم تكن حاجة فهو محض كفران

نعمة وسوء أدب وشرع الإسلام للمرأة حق الطلاق لعيب فى الزوج أو لخوف الفتنة إذا غاب مدة أو إذا جعلت عصمتها بيدها عند الزواج كما أن للقاضى التطليق لعدم الانفاق وللعيب وللضرر إذا كان الزوج يؤذى الزوجة بالقول أو الفعل وأن يغيب عنها سنة فأكثر وتتضرر من غيابه وأن يحكم عليه بالحبس ثلاث سنوات وتمضى سنة تتضرر من غيابه عنها فيها[1] والإيلاء واللعان .

وقد أمر الله تعالى بإجراء الصلح قبل طلب الطلاق فقال تعالى (ولا جناح عليهما أن يصلحا صلحاً والصلح خير) وإذا استحكم الخلاف واستحالت العشرة دون ضرر فقال تعالى (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) ـ (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) ذلك أن قاعدة جميع التصرفات فى الإسلام كما قال الرسول ﷺ (لا ضرر ولا ضرار) .

وهكذا نخلص إلى أن الطلاق فى الإسلام شرع لخلاص اثنين من ضرر محقق الوقوع بأحدهما أو بهما معاً وقد يكون نجاة لأحدهما أو لهما معاً ويتمثل ذلك فى قوله تعالى (وإن تفرقا يغنى الله كلا من سعته) ـ (ولا تعضلوهن) أى نهى الله عن إبقاء المرأة فى عصمة الرجل فلا هى زوجة لها حق الزوجات ولا هى مطلقة حرة تأمل فى الله غنى من سعته وذلك بقصد الإضرار والظلم الذى حرمه الله بقوله (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا) كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

إذن فالطلاق الذى يقع بلا موجب وفيه الضرر هو عين الظلم أما الطلاق الذى يقع بموجباته بقصد إزالة الضرر وتجنب الظلم وما يجره من نتائج فهو العدل إذ لولا الطلاق الذى أباحه الإسلام لفكر كل من الزوجين فى الخلاص من الآخر فترتفع بذلك نسبة الجرائم كما هو الحال بين أهل الأديان التى تحرم الطلاق .

---

(١) الأحوال الشخصية أبى زهرة ص٣٦٥ .

وقد دعى بعض فلاسفة الغرب إلى ضرورة العمل بنظام الطلاق قياساً على الشركة التى استحال بقاؤها وأصبح الطلاق جائزاً فى أوربا وأمريكا إذ يقع ٤٨ ٪ من كل مائة زواج فى أمريكا وفى ألمانيا يقع ٢٥ ٪ كما أخذت به إيطاليا قلعة المسيحية وهذه من كبرى شرائع الإسلام أخذت بها أوربا فى النصف الثانى من القرن الحالى ليتحقق به ما تنبأ به الفيلسوف برنارد شو يوم قال أن الاسلام سيكون دين أوربا فى هذا القرن .

العدالة بين الأولاد

فى الجاهلية الأولى لم تكن للعدالة وجود فى الأسرة خاصة بين الأولاد إذ كانت الأفضلية للذكر على الأنثى التى لم تكن تلقى إلا الوأد أو القبول على هون أو الإكراه على البغاء لتدر المال على أهلها وإذ جاء الإسلام فحرم القتل عامة فقال تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) ونهى بالتخصيص عن قتل الأولاد فقال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) وبين وضع الأنثى قبل الإسلام فقال (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب إلا ساء ما يفعلون ؟) .

ويقول الله عن يوم القيامة (وإذا المؤوده سئلت بأى ذنب قتلت) .

وقد عدل الإسلام إذ جعل للبنت والولد حقا ونصيبا مما اكتسبا فقال تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) — (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) — (أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) ويزداد عدل الإسلام بعد أن جعل البنت كالذكر على حد السواء فى عمل الصالحات فقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة .ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد حقق الإسلام للمرأة ضمانات فى الزواج دون

إكراه أو إهمال لإرادتها فقال الرسول (لا تنكح الثيب حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت) ليت ذلك فحسب بل جعل للمرأة مكانة لم تعط للرجل ويظهر ذلك عندما سأل رجل الرسول فقال له من أحق بصحابى فقال ﷺ أمك ثلاث مرات ثم قال أخيراً أبوك

أى تقدم هذا الذى ظهر من عدل الإسلام بعد أن جعل للبنت والولد حقا فى الميراث ومساواة فى الكسب والتملك والعمل وما زالت المرأة الأوروبية إلى الآن تطالب الحكام لتتساوى بالمرأة التى أعلى الإسلام مكانتها منذ أربعة عشر قرنا ولا ننسى أن فرانسا ظلت إلى عهد الجمهورية الرابعة بعد الحرب الأخيرة لا تمنح المرأة حق التصرف فى مالها كما يمنحها الإسلام ذلك إلا بإذن وليها على حين منحتها حق الدعارة بصفة علنية أو سرية وإن دل ذلك على شىء إنما يدل على مدى تأخر تشريعات البشر أمام تشريع الله الذى رفع من كرامة الإنسان .

وإنه لمن أسس العدل بين الأولاد ما قاله الرسول المشرع ﷺ « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » ، « ليس منا من وسع الله عليه وقتر على عياله » ، « قاربوا بين أولادكم[1] — « إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم » — « بر ولدك كما أن لوالديك عليك حق » — « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن إسمه » — « ساووا بين أولادكم فى العطية[2] .

فالعدالة بين الأولاد تقتضى ألا يفضل الوالد ولداً على بقية أولاده ويساوى فى العطية إذا أعطى وفى التأديب إذا أدب أى لا يرسل ولداً لمؤدب يحسن أدبه وتعليمه بينما يرسل الآخرين إلى صاحب حرفة أو يسمى ولداً باسم كريم بينما يسمى الباقين بأسماء مرذولة أو يخص ولداً برعايته وتدليله بينما يهمل بقية الأولاد أو يعاملهم بكل اشمئزاز واحتقار .

فأى أسرة من الأسر إذا افتقدت العدالة بين أولادها فى مجال التربيـــة

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى جـ٥ ص٦ .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٦ ص١٠٣٠ .

أو التأديب أو العاطفة أو العطية كأن يعطي الأب بعض الأولاد ويحرم البعض فإنها لن تكون إلا مسرحا للعداوة المتصلة أو بيتا لتخريج المتنازعين المتصارعين أو مدرسة لتربية الحقد والحسد والكراهية ولن يكون بأس هؤلاء المتنازعين إلا بينهم فيرفع هيبتهم من قلوب عدوهم فيصرعهم جميعا ولا يبقى لهم وجودا وذلك المثل ينطبق على جميع الدول إذا فقدت نظمها العدل في كل المجالات .

العدالة مع النفس

إن الإنسان بعقله الحر المنطلق وضميره الحي اليقظ جدير بأن يخوض معركة العدالة مع نفسه وإنها لأخطر المعارك والجهاد فيها من أعظم أنواع الجهاد الذي سماه الرسول ﷺ ، الجهاد الأكبر ، لجهاد النفس جهاد لأعدى أعداء الإنسان كما قال الرسول « أعدى أعداؤك نفسك التي بين جنبيك » وقد وصفها الله سبحانه وتعالى في التشريع فقال (إن النفس لأمارة بالسوء) فكل سوء مرده إلى النفس إذا جمحت وغاب العقل راعيها ونام الضمير حارسها وكل ظلم أساسه النفس إذا استبدت بها الشهوات وحركتها اللذات تأكيداً للأنانية وإيثاراً للذات في عماء ساوى بين مباحات ومنكرات عندئذ يختل ميزان العدالة بل ينهار ولا يبقى للعدالة وجود ولا معيار وقد قيل أن العـــدل أساسه اعتدال قوى النفس . كذلك أوصى الرسول بالنفس فقال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ـ « عليك نفسك » والمقصود ألا يظلم الإنسان نفسه بأن يتعدى حدود الله وقد قال عمر بن الخطاب حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا كما قال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله [1] ويرى الإمام الغزالي محاسبة النفس على جميع العمر

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي جـ ١٥ ص ١٧٥٧ .

نهج البلاغة طبعة دار الشعب جـ ٣ ص ١٧٧ وللمؤلف ص ١٤٦ فلسفة الدين للصرفي .

يوما يوما وساعة ساعة فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وعلى الأنفاس وعلى كل معصية بالقلب والجوارح فى كل ساعة وأنه من العجب أن تحاسب أهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتخـــاف لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك ونفسك تنغص عليك عيش الآخرة وإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقتهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم إياك إياك أن تتدلى بحبـــل غرور النفس وتنخدع بتزويرها فلم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ويحك يا نفس أما تستحين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظائم أتستحين من الخلق ولا تستحين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت ملطخة بالرذائل أما تعلمين يانفس أن المذنب أنتن من العذرة ؟ وأن العذرة لا تطهر غيرها فليكن نظرك يانفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطراراً ورفضك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك

إن الحاكم الحقيقى هو الذى حكم نفسه ولم تحكمه إن الأمير من أمر نفسه ولم تأمره فمن حكم نفسه فقد حكم العالم ومن لم يتعد بنفسه حدود الله فقد حقق أسمى درجات العدل المنشود ــ كيف يحقق العدل بين الناس من ظلم نفسه واتبع هواها وعاش أسيراً لشهواتها فصار محكوما لا حاكما مأموراً لا آمراً ذليلا لها لا حراً بها ؟ الحق كما قال رسول الله ﷺ « إبدأ بنفسك ثم بمن تعول » العدالة تبدأ بالنفس حتى إذا استقامت النفس بعد انحراف وعدلت بعد عوج واستنارت بعد ظلمة عمت العدالة أرجاء المجتمع بأسمى صورها وأعظم معانيها حقا وحقيقة سنة وشريعة منهجاً ونظاماً سلوكا وكلاما .

ثانياً — العدالة فى الشئون الإقتصادية

لقد اتسمت قواعد الإسلام بالعدل فى شتى مجالات الاقتصاد وذلك يتجلى فى ملكية الله لكل شىء ويصدق ذلك بقوله تعالى فى التشريع (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) - (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) كما أنه لا يشارك الله أحد فى ملكه وذلك فى قوله تعالى (ولم يكن له شريك فى الملك) .

ولقد خلق الله الكون وسخره لخدمة الإنسان وذلك فى قوله تعالى (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة) — (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) وجعل الله الإنسان مستخلفا وذلك فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وقد يسمى المستخلف خليفة كما قال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) كما قد يسمى المستخلف إماما كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) .

وقد فرض الله على الإنسان باعتباره خليفة ونائباً عن مالك كل شىء أو مستعيرا من المعير أن ينفق من المال الذى آتاه الله وجعله قواما عليه فقال تعالى (وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه) - (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) — (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) بذلك يتجلى أن من أكثر الله رزقه وزاد فى الإنفاق فإنما ينفق من مال الله وليس هو إلا وكيل أو وسيط فقد قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) — (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) بذلك يبين أن الانسان لا يملك المال بل حق الانتفاع فالمال مال الله وهو مالك كل شىء وقد تقيد حق الانتفاع فى الحدود التى رسمها الله .

حدود الانتفاع : لقد قال تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا — كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) - (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا

ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) — (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) .

بذلك عدل الإسلام فى المال فلم يجعله ملكا لفئة دون أخرى من البشر فجعله ملكا لله وحده فترتب على ذلك أن ليس لأحد على المال إلا حق المنفعة وأن للجماعة بواسطة الحكام أن تنظم طريقة الانتفاع بالمال إذ أن كل ما ينسب من الحقوق لله إنما هو لمنفعة الجماعة كما أن للحاكم أن يرفع يد مالك المنفعة عن المال إذا اقتضت ذلك المصلحة العامة بشرط تعويضه تعويضا مناسبا كما يجوز تحديد ما يملكه الشخص من مال كما حدد الإسلام الانتفاع بالمال وجعل على المنتفع حقوقا وهى :

الزكاة[1] : وهى فريضة فى مال الله يجب على كل فرد أن يخرجها إذا بلغ المال قدرا معينا فيؤديها إلى الحاكم ليردها إلى ذوى الحاجة طبقا لنصوص القرآن الكريم وهى كالصلاة ركن من أركان الإسلام الخمس وذلك فى قوله ﷺ بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . وأكثر نصوص القرآن تجمع بين الصلاة والزكاة فى قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) والزكاة فريضة فى المال وتجب على الرجال والنساء الصغار والكبار عملا بقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وتجب الزكاة فى كل مال حال عليه الحول أى مضى عليه عام فى يد المستخلف عليه عملا بقول الرسول (لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول) وتصل فى النقود والحلى إلى ٢½ ٪ .

الإنفاق[2] : ١ — وقد وصف الله المؤمنين بقوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) كما جعل الإسلام الإنفاق أصلا من أصول البر فقال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين

---

(١) راجع المؤلف رسول الإسلام ص٧٣ (٢) المرجع السابق ص ٧٠

وآتى المال فى حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة . . .) (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .
وقد جعل الله الانفاق جهادا فى سبيل الله فقال تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلك خير لكم أن كنتم تعلمون) (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى) وتمثل الانفاق فى سبيل الله فى كل عمل يساعد على نشر العقيدة وإصلاح أمور الأمة علميا واجتماعيا واقتصاديا ، كذلك يعد الانفاق على كل ذى حاجة فى سبيل الله وقد قال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وذو الحاجه هو من كان دخله لا يكفى حاجته الضرورية .

وقد حكى أن رجلا جاء الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضره فاخبرنى كيف أنفق فقال ﷺ (تخرج الزكاه فانها طهره تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل) ففرق الرسول هنا بين الزكاة وصلة الأقارب وإعطاء الجيران والمساكين والسائلين حقوقهم التى أوجبها الله لهم بعد الزكاة وروت فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ قال (إن فى المال حقا سوى الزكاة ثم تلا قوله تعالى ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . . الخ بذلك يتبين أن الانفاق فريضة غير فريضة الزكاة أفترضه الله لسد مالم تسده الزكاة من حاجات وقد تزيد فريضة الزكاة عن حاجات المسلمين كما حدث فى عهد عمر بن عبد العزيز إذ لم تجد الدولة محتاجا تنفق عليه بعض حصيله الزكاه .

الدعوه إلى الإنفـــاق : لقد حض الاسلام على الانفاق وذلك فى قوله تعالى (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبه أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) (وماتنفقوا من خير فلانفسكم) كذلك دعى الله إلى الانفاق سرا وعلانية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) كذلك قال رسول الله ﷺ (تصدقوا ولو بتمرة فانها تسد الجائع وتطفىء الخطيئة كما

يطفىء الماء النار) (اتقوا الله ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فكلمه طيبه) (كل أمرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس) (طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وامسك الفضل من قوله) (الايدى ثلاثة يد الله العليا ويد المعطى التى تليها ويد السائل السفلى فاعطى الفضل ولا تعجز عن نفسك) (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظاهر له ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له) وللحاكم أن يأخذ من فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ولو لم يكونوا بحاجة اليها إذا إقتضت المصلحة العامة عملا بقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان) وذلك مارآه عمر اذقال قبل وفاته لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الأغنيــاء فرددتها على الفقراء وذلك بالرغم من فرض عمر لكل شخص فى بيت المال حتى الاطفال فلم تكن حاجة الفير إلى فضول أموال الأغنياء هى التى تدعوا عمر إلى القول برد هذه الفضول للفقراء وإنما رأى عمر تضخم ثروات الاغنياء وخشى عليهم من الترف والبطر وخشى على الفقراء الحسد والفتنه .

وقد قال الرسول ﷺ (أيما أهل عرضه أصبح فيهم إمرؤ جائعا فقد برأت منهم ذمة الله) كذلك جعل الاسلام المسلمين جميعاً جسدا واحدا فقال الرسول (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضة بعضا) (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (المسلم أخو المسلم لا يظلمة ولا يسلمه) .

<u>المال فى الميـــزان</u> : لقد وضع الاسلام المال فى خدمة المصلحة العامة وجعل الملكية لله تعالى أما المنفعه فهى للعباد فحرم استئثار فرد لمنفعة المال وحرمان الأخرين منه وحرم الطبقية والاستغلال البشرى ولم يوافق على تحكم الأقلية المستغله فى مصائر الأكثرية المستغلة ليس ذلك فحسب بل برىء ممن باتوا

---

(١) رسول الإسلام المؤلف ص ٧٠

فى شبع وجارهم جائع فجعل المجتمع كله آثم إذا غفل عن فرد واحد وتركه فريسة الجوع وضحية العوز وقد اشترط فى المال ليقبله الله أن يكون طاهرا نقى المصدر بعيدا عن الظلم وليد العدل وحرم الاستغلال فى الربح والغش فى التجارة والاحتكار فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (لا يحتكر إلا خاطىء) (الجالب مرزوق والمحتكر ملعون) فحرم الربا (١) فقال تعالى « أحل الله البيع وحرم الربا » و حرم استغلال النفوذ والرشوة فقال تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) .
كما قال الرسول « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » (٢) (من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء) من أكل حلالا أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمه من قلبه على لسانه) (العباده عشرة أجزاء تسعة منها فى طلب الحلال) (من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه فى النار) (درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنيه فى الاسلام) (من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار) .

وقد حرم الإسلام كل مال جاء من عمل تحرمه الشريعة كالإتجار فى الخمر والخنزير وكل ما يثير شهوة الحس وما يكسبه الفرد دون عناء وبغير حق وقال سفيان الثورى من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر ثوبه النجس بالبول والثوب النجس لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره الا الحلال (٣) وقيل من أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط أوراق الشجر وقال ابن المبارك رد درهم من شبهه أحب إلى من أن أتصدق بمائه ألف درهم .

---

(١) راجع للمؤلف رسول الإسلام ص ٨٠
(٢) إحياء علوم الدين للغزالى ج ٥ ص ٨٠٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٠٩ .

هكذا عدل الأسلام إذ حكم المال بضوابط المشروعية فاشترط فى المال ليكون حلالا أن يكون مصدره حلالا وجهة إنفاقه حلالا ولا تكون حيازته حبا له وعباده يستغل من أجلها الأكثرية وتنتهك من أجلها كل المحارم إذ أصبح المال خادما للإنسان الذى صار بالإسلام أغلى من كل شىء وأعلى من كل شىء وأقدس من كل شىء حتى الكعبة التى يقر لها كل مسلم فى أعماق قلبه آيات التقديس وعلامات الحب ونظرات الجلال وذلك القول يستند إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « المؤمن أفضل من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن أكرم على الله من الملائكة » — « إن الله شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من إستخف بولى من أولياء الله تعالى » (١) ويقصد بولى الله من أسلم نفسه لله حق الاسلام وآمن بالله إيمان اليقين فصار يعبد الله لا ينشد إلا محبته وأصبح كل ماعدا الله من أعيان الوجود ماهو إلا سراب .

هكذا الإسلام جعل المال وسيلة لسد حاجات الأفراد لا تكريما لمركز أودين أو ثمنا لجهد وتجلى ذلك فى قول الامام على ابن أبى طالب عليه السلام « لو كان المال مالى لسويت بينهم فكيف والمال مال الله وهؤلاء عباده إن الله فرض فى أموال الاغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بتخمة غنى) قال الحاكم المسلم ذلك القول لأنه عاش حياة الفقر الذى قال عنه لو كان الفقر رجلا لقتلته ،عاش الحاكم عيشه أقل الناس وكأنه فرد من الرعية فقال (أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان والله لو شئت لكان لى من صفو هذا العسل ولباب هذا البر ومناعم هذه الثياب ولكن هيهات أن يغلبنى الهوى فأبيت مبطانا وحولى بطون غرثا وأكبادا حرى) الامام حقا خير ممثل للمؤمنين إنه صورة صادقة معبرة عن واقع الرعية وأحوالها إنه القلب النابض بمختلف أحاسيس الرعية إنه رجمان الحق بلسان الصدق لم يكن ممثلا كاذبا خاتلا للرعية

---

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص ١٤٠ .

فى قوله وفعله وتظهر عظمة الامام الذى عاش خادما للرعيـــة طالبا الحق والعدل فقال يادنيا غرى غيرى قد ابنتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير) هذا الإسلام يصنع الرجال الذين يحكمون أنفسهم وإذا حكموا الناس عدلوا فينظرون إلى المال فيضعوه لأهله وإلى السلطة فيسخرونها لخـــدمة الحق وإعلاء كلمته ليسود الأرض العـدل وترتفع قيمة الانسان .

كما جعل الاسلام من المال حقاً لكل إنسان حرصا على حياته فقال الرسول ﷺ (أن من مات جائعا فى جماعة فقد شاركت الجماعة فى قتله فعليها ديته)[1] فإذا أستل ذلك المحروم سيفه وحارب الجماعة التى حرمته قوته الضرورى فإنه يكون قد دافع دفاعا شرعيا عن حياته وإنه لحرى بالجماعة أن تسهر على ضمان قوته وذلك الضمان من سلامة وجوده كى لا يكون المال الذى دعم الاقتصاد سببا فى إنهياره فالجماعة التى أهملت حق الضائعين المحرومين فى الوجود فإنها تهمل من رحمة الله ونعمة الايمان وصدق الرسول إذ قال (ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم) بذلك يبين أن الاسلام حكم فى المـال فعدل عندما جعل المـال فى خدمة الانسان وراحته لينتظم البناء الاجتماعى ويسير سيراً لا شذوذ فيه ولا ظلم كى لا ينهار ويدمر بعضه بعضا وألغى كل النظم التى جعلت الانسان فى خدمة المال والاقتصاد ولو ضحى بنفسه وأفراد جماعته ليت ذلك فحسب بل القيم والمثل والفضائل كما ألغى الاسلام أن تستأثر جماعة بالمال دون جماعة وذلك عملا بقوله تعالى (لكيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) .

---

(١) راجع فلسفة التشريع الاسلامى فتحى رضوان ص ٢٩٢ .

ثالثا — العدالة فى الشئون السياسية

ليست العدالة إصدار الأحكام فى القضايا بما يظهر الحق ويبطل الباطل وينصف المظلوم ويخذى الظالم بل هى إظهار الحق والتزامه فى كل مجال من مجالات الحياة فالانسان قد لا يعدل مع نفسه إذا حملها مالا تطيق أو أبعدها عن طريق الثواب وقد لا يعدل إذا كتم شهادة أو أثبت مالا يتفق مع الحق فى كل قول يقوله أو كتاب يكتبه يشهد عليه وحسبه أن يقرأ كتابه الذى لم يرد به وجه العدل بل أراد به مجدا زائلا وشهوة نفس ضائعة ولذائذ جسد بائدة على حسابه راحة الضمير وحرية العقل وسلامة الفكر وسمو الروح وكم كشف التاريخ رجالا عملوا بالسياسية فكذبوا على الله وقالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم وأظهروا باطلا وستروا حقا ورفعوا زورا وكتموا نورا وكانوا لعنة للامة وعارا دنس وجه الاسلام السمح العادل وسببا فى انحطاط المسلمين وخضوعهم لأسر الذل ورق المسكنة ولعنة الله وغضبه وعذابه الذى لا ينتهى .

إن الباحث عن حقيقة السياسة يجدها وليدة الاسلام فهى ليست علما مستقلا بذاته ذلك لأن السياسى الأول الذى علم الدنيا فن السياسة هو محمد ﷺ لأنه جاء بدين يخاطب الروح والجسد ينظم الدنيا والآخرة أسس العقيدة وأقام شريعة النظام فلولا العقيدة التى استقرت فى القلوب والشريعة التى نظمت الحياة ما ارتفعت فى الآفاق راية الاسلام وما ظهر له فى الوجود دولة ذات كيان .

لقد اهتم الاسلام بصلاح الفرد لأن صلاح الفرد من صلاح المجتمع إذا كان الحاكم فاسدا والمجتمع صالحا قوم المجتمع حاكمه ورده إلى الطريق الذى رسمه الله وإذا كان الحاكم صالحا والمجتمع فاسدا قوم الحاكم المجتمع وهداه إلى طريق الحق أما المأساة الكبرى التى لا علاج لها إذا فسد الحاكم الراعى معلم الأمة ومرشدها وهاديها ومثلها الذى يحتذى به وفسدت الأمة الرعية المحكومة فلن ينفع عندئذ أى نظام من أنظمة الحكم مهما كان نوعه أو غايته

أو مصدره لأن كل النظام سيكون لخدمة أنصار وثنية الهوى وصنمية الذات التي لا ترى الحق إلا باطلا والعدل إلا جورا والباطل حقا والجور إنصافا والعدل ظلما والفساد إصلاحا ولا يسمون أنفسهم إلا بالمصلحين وهم المفسدون ولكن لا يشعرون .

وقد جعل الإسلام السياسة من أهم الوسائل لبناء الدين والدنيا لأن راعى الأمة هو أمين على أمورها الخارجية والداخلية والأخروية أى الدينية فإصلاح الدين معناه صلاح الأمه ونجاتها من عذاب الله ولعنته فى الدنيا والآخرة فالأمة التى تحيا من أجل شهواتها ورفاهيتها هى أمة أرخص من التراب الذى تسير عليه مهما بلغت من معرفة وحققت من علم وحضارة لأنها أمة جمحت فيها عقول ساستها والتوت فيها أمانى أبنائها واستعلت فيها شهوات نسائها وتخاذلت فيها همم رجالها وانحرفت فيها عقائد سادتها ولا تعدو السياسة فيها إلا أمراً مفصولا عن الدين مبتورا من الأخلاق تحركها الأغراض وتدفعها الأهواء ولا تضحى إلا رئاسة لإشباع لذات النفس حيث يختفى جوهر السياسة التى أرادها الإسلام وهو الفضيلة والحكمة والعلم والزهد والايثار والكياسة وخوف الله وكل من تتوافر فيه تلك الصفات فهو السياسى الحق الذى يقدر على قيادة نفسه فيعدل فى حكمه عليها ويجنبها المظالم ومن قدر على حكم نفسه فهو قادر على حكم العالم كله لأنه من نفس واحدة ، كما قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) ومهما عارضت الأكثرية السياسى الزاهد الحكيم فإنه لا يعتد برأيها الذى لا يعدم من الخطأ لأن الله تعالى قال : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) (وأكثرهم لا يعقلون) - (وأكثرهم للحق كارهون) ذلك أن الدهماء فى كل الأمم ينعقون لكل ناعق تحركها بطونها وشهواتها وتخدعها الأباطيل والأهواء وتسترقها الأطماع وتستذلها الأغراض ، فكيف تعرف الفضيلة والفاضل وتقيم الزهد والزاهد فصوت الجماهير الهادر يصنع ساسته من بين أبنائه ، وصدق قول الله تعالى ، (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وصدق الرسول ﷺ (كما تكونوا يولى عليكم) فهل نسى التاريخ فرعون وقومه الذين

تبعوه رغم أنفسهم وصنعوا منه إلها وعبدوه رغم أنه بشر عاجز ضال فكانت الرعية هي أساس الصنمية وسبب الوثنية تجمعت ضلالات أنفسهم في فرد فكان وثنهم المعبود فساسهم باستعلاء وقادهم بظلم وتأله فضلوا وساروا خلفه كالعجاوات فهلك وهلكوا وذلك مصير . الأكثرية المستذلة التي صنعت فرعون الضال المضلول وهتفت بعبادته فكانت من الخاسرين ومثلا في العالمين .

مبادىء العدل السياسي الاسلامي : لقد عدل الاسلام عندما جعل عبء الحكم مشتركا بين الراعي والرعية ولم يجعله بيد الراعي يسيره كيف يشاء وقد تجلى ذلك في قول الرسول ﷺ (الامام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها ، والولد راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، ألا فكلكم مسئول عن رعيته) .

ولقد وضع الاسلام ممارسة العمل السياسي في إطار الحق الواضح الذي لا يعرف حيفا والصدق البين الذي لا يعتريه كذبا والانصاف الذي لا يشوبه جورا ، فقال ﷺ (ما من أمتي أحد ولى من أمر المسلمين شيئا لم يحفظهم بما حفظ به نفسه لم يجد رائحة الجنة) فالرجل الذي وضعته الأمة أمينا ووكيلا عنها ليعمل اصالحها عليه ألا يخص نفسه بشيء حرمت منه أمته وإلا فقد خان الأمانة كما قال الرسول ﷺ (ما من امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته) - ومن استعمل رجلا من عصابة فيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، وقال الامام علي عليه السلام (لا تضعوا من رفعته التقوى ولا ترفعوا من رفعته الدنيا ولا تمدحوا ناطقها ولا تجيبوا ناعقها ولا تستضيئوا باشراقها ولا تفتنوا باعلاقها فإن برقها خالب ونطقها كاذب) فالعدالة هنا لا تتحقق إلا باستعمال الرجال الذين رفعتهم التقوى والزهاده في برق الدنيا الخالب وجدها الكاذب فأولئك يخدمون الأمة حبا في الله ولا يستخدمونها حبا

فى أنفسهم يصنعون للأمة مجدا ولا يصنعون لأشخاصهم هيبة أو نفوذا أو جاها.
كذلك حذر الرسول أصحابه فقال : إذا وسد الأمر غير أهله فانتظروا الساعة،
وما تلك الساعة التى حذر منها الرسول إلا ساعة الظلم والدمار والانهيار ورواج
سلعة النفاق والزلف والتملق والكذب والزور إذا وسد الأمر غير أهله وقال الرسول
ﷺ « من أعان ظالما بباطل ليدحض به حقا فقد برىء من ذمة الله
ورسوله » - « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قال رجل يارسول الله أفرأيت
إن كان ظالما فكيف أنصره قال تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » - « إذا رأيتم
الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » - « إذا هابت أمتى
عن أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها » - « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب
أن يعصى الله فى أرضه » - (ان الله ليغضب إذا مدح الفاسق) - (من أكرم
فاسقا فقد أعان على هدم الاسلام) - (إن الله لعن علماء بنى إسرائيل إذ خالطوا
الظالمين فى معاشهم) - « يكون أمراء تغشاهم غواش أو حواش من الناس
يكذبون ويظلمون فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس
منى ولست منه ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو
فهو منى وأنا منه » - « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى
ذكره وإن ذكر أعانه وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى
لم يذكره وإن ذكر لم يعنه » وحقا على الأمير أن يجعل وزيره أتقى الناس
وأخوفهم لله ورسوله وأزهدهم فى شهوة الحكم وأحرصهم على مصلحة الأمة -
فالسياسى فى الإسلام ملزم بالولاء لأمته على هدى العدالة والإنصاف لا الجور
وقد سأل أبى ابن كعب رسول الله ﷺ أمن العصبية أن يحب الرجل قومه
فقال الرسول ﷺ لا ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم) فالعدالة
فى الإسلام أولى بالاتباع والتفضيل ولو تعارضت مع مصلحة الرعية والراعى
القائمة على الظلم لأنها هى غاية التشريع وركيزة الإيمان وأمل الإنسان .

---

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف طبعة سنة ١٩٦٩ ص ١٨٢ .

الشروط الواجب توافرها فى القاضى

حصر الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية تلك الشروط فجعل منها أولا :
يجب أن يكون القاضى رجلا بالغا أما المرأة فان أبى حنيفة يجيز توليها القضاء فيما تصح فيه شهادتها كالولادة والبكارة والحمل والحيض والسقط وكل هذه الأمور تقبل فيها شهادة المرأة بمفردها لأنها مما لا يحضره الرجال ولا يطلعون عليه ومن ثم أقيم فيها النساء مقام الرجال للضرورة ولقول الرسول ﷺ « شهادة النساء جائزة فيما لا يستطاع للرجال النظر فيه » وهناك أمور لا تقبل فيها شهادات النساء وهى الحدود والقصاص وهذه الأمور لا تثبت مع الشبهة والشبهة قائمة فى شهادة النساء لغلبة السهو والنسيان أما باقى الأمور كالزواج والطلاق والخلع والعدة والاسلام والردة والنسب والبيوع وسائر المعاملات المدنية والتجارية ومسائل الأحوال الشخصية فلا تثبت بشهادة المرأة منفرده فلا بد فيها من شهادة رجل وامرأتين والظاهر من الفقه الحنفى قول شهادة امرأتين مع الرجل فى مثل هذه الأمور لأن المرأة ساوت الرجل فيما يثبت عليه أهليه الشهادة وهو القدرة على المشاهدة أما شهادة النساء وحدهن فى مثل هذه الأمور فلا تصلح للإثبات لإنتفاء الضرورة القائمة فى الحالات التى يجيز فيها الاثبات بشهادتين وحدهن ولأن الشبهة فى شهادتين تكون منتفية بوجود شهادة رجل .

أما فيما يتعلق بتولى المرأة القضاء فقد ذكر الماوردى قول الله سبحانه وتعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) يعنى فى العقل والرأى ولا تكون المرأة قوامة على الرجل بالقضاء إذ قال الرسول ﷺ (ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة) - (ناقصات عقل ودين) أما الشافعية يجتمعون بتأخير المرأة فى صفوف الصلاة فيرونه تأخيراً لها من الرجل فى الامامة وغيرها فى الولايات والبعض يجيز للمرأة تولى القضاء محتجا بقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) إلا أن الجانب الراجح من الفقهاء يرى أن الاحتجاج بالآية الكريمة فى غير موضعه لوجود النص الذى جعل القوامة للرجل على المرأة

ولا يعقل أن تكون المرأة قيمة على الأمة رجالا ونساء ـ ثانياً ـ(١) أن يكون القاضى عاقلا صحيح التمييز جيد اليقظة بعيدا عن السهو والغفلة متوصل بذكائه إلى حل ما أشكل وفصل ما عضل ويقول الطرابلسى أنه يجب أن يكون غير مستكبر عن مشورة من معه من أهل العلم متأنيا غير عجول عملا بقوله صلى الله عليه وسلم « التأنى من الله والعجلة من الشيطان» وقال الحسن البصرى إن أحدكم ليقضى فى المسألة لو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر وقال الشعبى كانت القضية ترفع إلى عمر ربما يتأمل فى ذلك شهرا ويستشير أصحابه وقال مالك لا أدرى فى أثنين وثلاثون مسألة من ثمانية وأربعين وردت عليه كل ذلك فى الافتاء فما بال القضاء وهو فصل لا رأى إذ القاضى يجلس للقضاء فى محراب العدل كأنما يقف للعبادة بين يدى الله فعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة وإشترط أن يكون القاضى نزها عما فى أيدى الناس وقال عمر رضى الله عنه « اجعلوا الناس عندكم سواء قريبهم كبعيدهم وأيا كم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » وذكر مسروق ابن الأجدع عن الرشوة فقال أن القاضى إذا أخذ هدية فقد أخذ السحت وإذا أخذ الرشوة فقد بلغت به الكفر وروى الشعبى عن مسروق قال « سأل رجل بن مسعود عن قوله » . « سماعون للكذب أكالون للسحت » فقال أما الكذب فقد عرفناه فما بال السحت قال الرشا قال أ فى الحكم قال ذا كم كفر ثم تلى قوله تعالى « ومن لم يحكم بما نزل الله فأولئك هم الكافرون » أما عن الهدية للقاضى فقال ابى حنيفة (إن كان الذى أهدى إليه أخا كان يقبل ذلك منه قبل أن يستقضى فلا بأس لقبول هديته وإن كان إنما أهدى إليه أذ ولى القضاء فإنى أكره ذلك ومذهب أبو حنيفة يرى المكافأة على الهدية بأحسن منها إذا قبلت وحكى أن الاجبهذ هدى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن خطاب عامل عمر بن عبد العزيز على الكوفة فكتب إلى الأخير فكتب إليه إن كان يهدى اليك وأنت بالجزيرة فاقبلها منه وكان عمال عمر بن عبد العزيز كمثله ورعا ونزاهة وعفافا .

---

(١) راجع رسول الاسلام للمؤلف ص ١٣٠ طبعة ١٩٧١

ثالثا : الحرية فناقص الحرية لا ولاية له على غيره واشترط كذلك الإسلام عملا بقوله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وذلك محل بحث فى هذا الكتاب .

رابعا : العدالة : وهى شرط فى كل ولاية ويقول ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية أن المهم فى اعتبار من يصلح فى الولاية هو معرفة مقصود الولاية ويقدم فى ولاية القضاء العالم الورع وذلك لازم لتجنب الميـــل والهوى وتحقيق العدل وشرط العدالة مجمع عليه فى الفقه الإسلامى إذ لا بد لمن يتولى القضاء أن يكون عدلا وأهلا للشهادة ويقول الماوردى فى الأحكام السلطانية أن العدالة تعنى أن يكون القاضى صادق اللهجة ظاهر الأمانة عفيفا عن المحارم متوقيا المآثم بعيداً عن الريب مأمونا فى الرضى والغضب .

خامسا : سلامة السمع والبصر والنطق ليتميز له الحق من الباطل إذ السلامة من الآفات لذوى الولاية .

سادساً : العلم بالأحكام الشرعية أى العلم بكتاب الله الكريم وما يتضمنه من أحكام ناسخاً ومنسوخاً ومحكماً ومتشابها ومجملا ومفسراً وكذلك سنة الرسول ﷺ قولا وفعلا ويتعين أن يكون عالما بآراء السلف ليتبع الإجماع ويجتهد برأيه فى الاختلاف كما يجب أن يكون محيطا بما يستلزمه القياس برد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها وهذا الشرط لازم للقضاء بالحق فى مختلف ما يعرض على القاضى من أمور ولن يكون قضاؤه حقا إلا إذا كان عالما بأصول الفقه وكيفية استنباط الأحكام لأن القاضى لا يغشى الأحكام الشرعية باجتهاده وإنما يأتى بها من الأصول الموجودة بها وهى الكتاب والسنة فإذا لم يكن منصوصا عليه فإنه يتلمسها بواسطة القرائن والآيات والأدلة الظنية مجتهداً برأيه مستلهما فى ذلك روح الشريعة ومقاصدها والقواعد الكلية العامة الواردة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وليس المقصود بشرط العلم بالأحكام الشرعية الإلمام بها كلها ولكن القـــدرة على فهم مصادر الشريعة

الإسلامية وبيان الحكم الشرعى فى موضوع النزاع والقدرة على استنباط الحكم من الأمور المنصوص عليها لأن النصوص كثيرة والحوادث والوقائع عديدة وكل واقعة لها ظروفها مما يستوجب الفهم والفطنة للاهتداء إلى القضاء اللازم لها . إذ القاضى يطالب بإصدار الاحكام فيما يعرض عليه فإن وجد نصا قضى به وإلا فعليه الاجتهاد برأيه طبقا لما سبق ذكره متوخيا فى ذلك مقاصد الشريعة وروحها وقاعدة لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام إذ حيثما تكون المصلحة المشروعة فثم شرع الله وروى أن الإمام مالك سئل فى أربعين مسألة فأجاب فى أربعة وأجاب فى الباقى لا أدرى وسئل أبو حنيفة فى بعض الامور فقال لا أدرى والإجابة بلا أدرى لا تعنى أنه ليس لها حكما ولكن تعنى أن من وجه إليه السؤال يطالب من السائل إمهاله حتى يجتهد وهذا هو الشأن فى القاضى إذ يجب أن يكون على قدر معقول من العلم بالأحكام الشرعية إذا عرض عليه ما لم يعلم الحكم الشرعى فيه فعليه الاجتهاد برأيه وإن لم يوصله الاجتهاد إلى حكم يطمئن إليه فعليه المشورة وجاء فى معين الحكام للطرابلسى أنه لا يشترط فى القاضى معرفة الفروع التى استخرجها المجتهدون برأيهم كما ورد فى كتاب عيون الأخبار لابن كتيبة الدينورى أن عمر بن عبد العزيز قال لا ينبغى للرجل أن يكون قاضيا ما لم يكن عالما قبل أن يلى القضاء مستشيراً لأهل العلم بعيداً عن الحرص والطمع منصفا للخصم مقتفيا بالأئمة [عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للقضاء]:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس سلام عليك أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ساوى بين الناس فى مجلسك ووجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ومن ادعى حقا غائبا أو بينه فاضرب له أمداً ينتهى إليه فإن بينه أعطيته بحقه وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية فإن ذلك هو أبلغ فى القدر وأجلى للعماء .

ولا يمنعك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور ومجلوداً فى حد أو ظنينا فى ولاء أو قرابة فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والإيمان ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى كتاب أو سنة ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق

وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصا فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام عليكم ورحمة الله

يستفاد من ذلك العهد أن القضاء فريضة محكمة عملا بقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وسنة عملا بقول الرسول ﷺ لعمرو فى رجلين اختصما لرسول الله أقض بينهما قال عمرو على ماذا قال على إنك إذا أصبت فلك عشر حسنات وإذا أخطأت فلك حسنة واحدة كما روى عمر أن الرسول قال « وإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر » وأن للقاضى أن يجرى الصلح بين المتقاضين ويعدل عن قضاء قضى فيه إذا راجع نفسه فوجد الحق فى غير ما قضى كما على القاضى أن يجرد نفسه من كل العواطف ابتغاء وجه الله فى قضائه فربط القاضى برباط سماوى كله مراقبة وحساب وطمعا فى رضى الله .

أما ما قاله الإمام على فى القاضى للولاة : اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر عن الفيء إلى الحق إذا عرف ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه وأوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة

الخصم وأصرمهم عند اتضاح الحكم من لا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء وأفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد لظهوره فى مودة الرعية .

أما عمر إبن عبد العزيز فقال : إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد أكمل علم بما كان قبله ونزاهة عن الطمع وحلم على الخصم واقتداء بالأئمة ومشاورة أهل للرأى والعلم وفى رواية سبع العقل والفكر والورع والنزاهة والصرامة والعلم بالسنن والحلم

وقال الإمام محمد إبن عبد الوهاب فى كتابه أدب القاضى ينبغى أن يكون القاضى قويا فى غير عنف لينا من غير ضعف حليما متأنيا ذا فطنة وعلى القاضى أن يرد الهدية والرشوة إلى ربها ويحتمل أن يجعلها فى بيت المال ويكره أن يتولى البيع والشراء لنفسه ويوكل فيه من لا يعلم أنه وكيله وقيل القاضى الكامل هو الذى يشاور ولو كان عالما ولا يسمع شكاية من أحد إلا ومعه خصمه ويقضى إذا علم وبعد مهل وقال صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم (ما شقى امرؤ عن مشورة وما سعد باستبداد برأى)[١] وحكى أن رجلا نزل بالإمام على ابن أبى طالب فقال له ألك خصم ؟ قال نعم فقال الإمام على تحول عنا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تضيفوا أحد الخصمين إلا ومعه خصمه » — « من ابتلى بالقضاء بين الناس فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومقعده ولا يرفع صوته على أحد الخصمين ما لا يرفع على الآخر » إن دل ذلك التوجيه الشريف على شىء فإنما يدل على عدل مطلق فى كل صغيرة وكبيرة تبدر من القاضى حتى اللحظة والإشارة .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص٤٥ .

أتقياء هربوا من القضاء

لما كان القضاء وهو فض الخلافات بين الناس حماية للمجتمع من أن تسوده الفوضى وتسيطر عليه الاهواء ولقمع الظالم ونصرة المظلوم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان ذلك العمل من أعمال الأنبياء إذ قال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه فقال (فاحكم بينهم بما أنزل الله) - (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) كما قال الرسول ﷺ و العادلين « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة على يمين الرحمن » وقد كان النبى ﷺ القاضى الاول فى الإسلام فصل فى مشاكل المسلمين طبقا لما جاء فى القرآن الكريم وإن لم يجد فبالإجتهاد ومشورة أولى الأمر من أصحابه .

ورغم عظمة القضاء وقداسة رسالته وسمو غايته فقد قال الرسول ﷺ « من استقضى فكأنما ذبح بغير سكين » ولعظم حساب القاضى يوم القيامة فقد هرب كثير من الصالحين من ذلك العمل خوفا من هول الحساب وقد حكى أن عثمان دعا عبد الله بن عمر أمير المؤمنين قال أو تعافينى يا أمير المؤمنين فقال عثمان وما تكره من ذلك وكان أبوك يقضى قال عبد الله إن أبى كان يقضى فإن أشكل عليه سأل رسول الله ﷺ فإن أشكل على رسول الله سأل جبريل وإنى لا أجد من أسأله وكتب عمر إلى عمرو أن يولى كعب قضاء مصر وكان حكما بالجاهلية فأبى كعب قائلا والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية ثم أعود فيها بعد أن نجانى الله منها قال له عمر إنه أمر أمير المؤمنين فاقض حتى أرجع إليك فجلس للقضاء شهرين حتى جاءت معافاة أمير المؤمنين له كما استقضى أبو جعفر المنصور إمام مصر الليث بن سعد فأبى واستقدم يحى بن سعيد الأنصارى من المدينة واستقضاه عبد الله بن رجب لمصر فاختفى فمر عليه أسد بن سعد مختبئا فى داره فناداه ألا تخرج إلى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله

فقال عبد الله إلى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع السلاطين وسمعه الناس يناجي ربه قائلا يارب يقدم عليك إخوانى علماء فقهاء وأقدم عليك قاضيا لا يارب ولو قرضت بالمقاريض كما حكى أن سفيان الثورى هرب من وجه المهدى وألقى فى النهر بخطاب تكليفه بالقضاء وحكى أن سحنون ولى القضاء بغير أجر وقال لابنته اليوم ذبح أبوك بغير سكين .

كما عرض الرشيد القضاء على المغيرة فامتنع أما أبو حنيفة امتنع عن ولاية القضاء لأبى جعفر المنصور وحلف أبى جعفر على أن يقبل وحلف أبى حنيفة أنه لا يقبل وقال الربيع بن يونس الحاجب ألا ترى أمير المؤمنين يحلف قال إن أمير المؤمنين أقدر على كفارة إيمانه منى فأمر به أبو جعفر إلى الحبس ثم دعاه فقال أترغب فيما نحن فيه؟ قال أبو حنيفة أصلح الله أمير المؤمنين إنى لا أصلح للقضاء قال كذبت قال أبو حنيفة قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب فإن كنت كاذبا فلا أصلح وإن كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح واستمر أبو حنيفة يقول لأمير المؤمنين فى أسباب رفضه اتقى الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله والله ما أنا مأمون الرضا فأكون مأمون الغضب ولو إتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لإخترت أن أغرق ولك حاشية يحتاجون إلى من يقربهم لك فلا أصلح لذلك وكيف يحل لك أن تولى أمانتك قاضيا هو كذاب ومات أبو حنيفة رضى الله عنه راضيا مرضيا فى سجنه .

القضاة والسياسة

كان الوالى هو القاضى وفى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اتسعت الدولة وزادت المشاكل والأنزعة فرأى من المصلحة فصل القضاة عن الولاة والأمراء كى يتفرغ الأمراء والولاة فى نظر المشاكل العامة والقضاة فى الفصل فى الخصومات وفى مقدمة ابن خلدون كان للقاضى فى عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط وقد يفوض له الخليفة نظر بعض الأمور العامة لاعتربا

أنها داخلة فى ولاية القضاء ولكن لما يراه فى القاضى من الكفاءة كما أن تحريم اشتغال القاضى بالسياسة مبدأ إســـلامى قصد منه أن يكون القاضى محايداً لا داعية للسياسة متفرغا لعمله القضائى وقد ذكر القرافى فى كتابه المسمى بالذخيرة الذى أشار إليه الإمام علاء الدين وكذلك الطرابلسى فى كتابه معين الحكام أنه ليس للقاضى الاشتغال بالسياسة ولا قسمة الغنائم وتفريق أموال بيت المال على المصالح وترتيب الجيوش وقتال البغاة كما أنه ليس للقاضى أن يحرم الخصم من حقه باعتبار أن رأيه يخالف لرأى الوالى مثلا لكونه من الخوارج أو الشيعة أو غيرهم من الجماعات التى تناهض الحكام والولاة فالجميع أمام القضاء سواء مهما كانت دياناتهم وآراؤهم فى الحكام والولاة .

وقد شهد التاريخ بحيدة القاضى المسلم وبعده عن السياسة إذ اختصم رجل من حلوان وأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لدى القاضى زاعمـــا أن الخليفة عبد الملك بن مروان اغتصب أرضه وأقطعها لعبد العزيز بن مروان والد عمر وأدلى المدعى بحجته فقضى له القاضى فقال عمر بن عبد العزيز للقاضى أن والده أنفق على الأرض ألف ألف درهم فى سبيل إصلاحها فرد عليه القاضى بقوله أكلم من غلتها وأزيد فطابت نفس عمر وقال هل القضاء إلا هذا والله لو قضيت لى ولإخوتى ما وليت عملا من قبلى قط .

مثال على استقـــلال القاضى عن السياسة : عندما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة على رأس القرن الأول قدم إليه وفد من سمرقند يشكو إليه قائد الإسلام كتيبة بن مسلم الباهلى لأنه دخل المدينة من قبل أن يوجه إليها الإنذار وفقا لقواعد الحرب الإسلامية فكتب عمر إلى عامله على العراق وكانت تتبعه بلاد خراسان وما وراء النهر فى روسيا السوفيتية ليختار قاضيا يفصل فى هـــذه الخصومة فاختار جميع بن حاضر الباجى فسمع الوفد وسمع كتيبة وحكم القاضى بأن يخرج الجيش من سمرقند وأن يعود أهلها إلى حصونهم فيها وأن ينابذهم كتيبة بعد ذلك على سواء ثم يحاربهم إن أبوا عليه ورفض القاضى ذلك الحكم وهدد القاضى باعتزال القضاء فخاف القاضى من عدالة عمر وجميع فنفذ الحكم

وأخذ الجيش الإســـلامى فى الانسحاب وإذ رأى أهل سمرقند عدل القضاء واستقلاله عن قوة الدولة السياسية وعدم خضوعه إلا لدستور الإسلام الذى لم تعبث به أهواء البشر ولم ينزل إلا من لدن حكيم عدل فهتفوا بحياة الجيش وبقاء الإسلام لما شاهدوه بأنفسهم من عدل القضاء وعظمة الحق وقدسية الدستور الإسلامى الذى لا يعرف رؤوساء أسكرها الكبرياء ولا نفوسا صفدت بأغلال الظلم وكتب عليها الاستعباد لقد قال أهل سمرقند للجيش الذى أخذ ينسحب فى طاعة وخضوع للقضاء الذى لم تلفحه ريح السياسة ولم تغير من حقيقته الأهواء مرحبا بكم سمعنا وأطعنا لقد كان لذلك الحكم العادل أثره العظيم فى اعتناق دول عدة دين الإسلام دون إراقة دم وصار مثلا عاليا فى أرجاء أسيا من آسيا الوسطى إلى الهند والصين وعرفت سائر الدول أن القاضى المسلم لا يخضع لوعد أو لوعيد من الحاكم ويحكم ضد قائد الدولة بل جميع دولته إذا كان الخطأ فى جانبها لأنه لم يخضع لقول بشر ولم يلزم بمصنوع الأهواء فـــلا يولى وجهه إلا شطر قانون إلهى المصدر سامى الغرض قوى البيان لا يبلى بالقدم ولا تعتريه أباطيل ولا تكتنفه أهواء ولا علة العلماء ولا يشبع منه الأتقياء القاضى المسلم لقول بشر لا يخضع وصناعة الأهواء لا يسمع وغير باب الحق لا يقرع ولغير أمر الحق لا يصدع وغير راية العدل لا يرفع لا يزج به للباطل ولا يدفع أعدى عدوه نفس تطمع ومن صنوف الهوى لا تشبع ومهما ملكت فلا تقنع القاضى المسلم طريق الحق منهاجه والعدل غايته وعشق الحق سلاحه ونصرة المظلوم غذاؤه وردع الظالم حياته وقانون الله رفيقه وقول الحق أنيسه والآخرة مرآة والمثول يوم الحساب بين يدى الديان مرماه لا تخدعه أباطيل دنياه عن حقيقة موعود أخراه لا يعميه موهوم السلطان وبريق العيان عن ريادة حوض الرحمن.

هكذا بالعدل وثق الناس فى إنصاف الحاكم وآمن كل منهم على ماله ونفسه وعرضه وصار الحاكم محكوما إذا كان ظالمـا وصار المحكوم حاكما إذا كان مظلوما فعم الإيمان بالله منصفا وعادلا وإزدادت الثقة فى الله فانتشر الإسلام ورفرف القرآن بجناحيه حيثما حل الإسلام ليوطد الإيمـان ويقيم صرح العدالة الذى به الملك تأسس وصدق الرسول ﷺ إذ قال « العدل أساس الملك » .

الحسبه وولاية المظالم وأشهر القضاة

أولا : ـ الحسبة : ـ وهى الامر بالمعروف والنهى عن المنكروالإصلاح بين الناس بكافه الطرق المشروعة وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ففى الآية أمر (ولتكن) وذلك فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن البعض وكان يشترط فيمن يتولى الحسبه أن يكون حكما عدلا فقيها عالما بالأحكام الشرعية وكانت وظيفته مراقبة المكاييل والموازين ومن تسول له نفسه الغش فكان المتحسب يطالب جميع الباعة بسنجهم ومكاييلهم إن وجد فيها خللا صادرها وألزم صاحبها بشراء غيرها أوامر باصلاحها (١) وكان للمتحسب رجالا يطلعونه على أعمال المتحرفين ليصلحهم وكان يتفقد أحوال الصناع الذين يصنعون الأشربة والأطعمة فيمنعهم من صناعة المحرم ويمنع صاحب كل صناعة من الغش فى صناعته (٢) ويمنع العقود المحرمة كعقد الربا والميسر وبيع الغرر كبيع الطير فى السماء وبيع النجش وهو ان يزيد فى السلعة من لا يرد شراءها (٣) وكان المحتسب ينظر فى مراعاة أحكام الشرع ويحول دون مايضايق الجهور ويهدم المبانى القديمة المتداعية وذلك تفاديا لانهيارها على ٠٠ار٠ بالطرق .

ومما يؤيد وجود الحسبة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ماروا٥ مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله مر على صبره طعام فأدخل يده فيها فنالت إصبعه بللا فقال (ياصاحب الطعام ماهذه ؟ فقال إصابته السماء يارسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ ثم قال (من غش فليس منا) (٤) ولم

---

(١) أحياء علوم الدين للغزالى جـ ٢ ص ٤٢
(٢) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ٢١٩
(٣) المرجع السابع ص ٢٢٠
(٤) حقيقة الاسلام وأصول الفقه للشيخ محمد المطيعى

يقصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسبة على نفسه بل أشرك فيها غيره فقد استعمل سعيد بن سعيد ابن العاص بعد الفتح على سوق مكة كما استعمل عمر بن الخطاب السائب بن يزيد على سوق المدينة وبعدة السيدة الشفاء وكذلك السيدة سمراء بنت نهيله وكانت تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب الناس بسوط معها على ذلك إذ لصاحب الحسبة الحكم على من غش في أسواق المسلمين في أى سلعة من السلع وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطارح اللبن المغشوش في الأرض أدبا لصاحبه وروى أنه أحرق بيت مر يشد الثقفى لأنه كان يبيع الخمر وقال له أنت فويسق ولست برويشد وكانوا يجبرون رؤساء المراكب على ألا يحملوا من السلع مايزيد عن حمولة مراكبهم ويمنعونهم من المسير عند اشتداد الريح وإذا حمل في السفن الرجال والنساء حجز بينهم بحائل ويلاحظون السقائين ووجوب لبسهم السراويل حتى لا يظهر من أعضاء جسمهم مايتنافى مع الآداب العامة ويشرفون على صغار الأولاد كى لا يضربهم معلموا الكتاب ضربا مبرحا فكان صاحب الحسبه راعى الأمانة ونصير الأخلاق الفاضله له أن يستعين بالشرط إذا اراد تنفيذ أحكامه (١) وكان والى الحسبة يحث الأفراد على القيام بواجباتهم ويمنع ارتكاب الجرائم وينتخب من أعيان المسلمين كما كان من واجبه أن يأمر الناس بإقامة الجمعة ويؤدب على الاخلال بها ويأمرهم بصلاة العيد وصلاة الجماعة في المساجد وإقامة الآذان فيها للصلوات ومن فرط من المؤذنين بواجبه الزمه بأدائه على أحسن وجه ويأمر الناس بالصلوات الخمس في ميعادها لأن من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس (٢) ويأخذ الساده بحقوق العبيد والإماء وكذلك أرباب

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ومقدمة بن خلدون ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ طبعة بيروت ١٩٠٠ وتاريخ الإسلام السياسى حسن ابراهيم ص ٥٨٠ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢١١ إلى ٢١٤ والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ابن قيم الجوزية ص ١٩ .

البهائم يأخذهم بعلوفتها إذا قصروا وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق ويأمر الناس بصوم رمضان ويمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهمة فقد قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » كوقوف رجل مع إمرأة في طريق خال فخلو المكان ريبه ويمنع أهل الذمة من تعرض المسلمين لهم أى سب أو أذى ويؤدب المعتدى وخلاصة القول وهو الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو المحافظ على الآداب والأخلاق والفضيلة والأمانة وقد أتسعت سلطة المحتسب حتى الزم فى عهد الفاطميين رجال الشرطة بتنفذ أحكامه وكان يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر .

ولاية المظـــالم : ـ كانت ولاية المظالم داخلة بحسب أصولها فى القضاء وقد وجدت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان متوليها يسمى صاحب المظالم وباشرها الأمير أو الوالى وهى من الوظائف التى تمتزج فيها سطوة السلطان بنصفة القضاء فاحتاجت إلى علو يد وعظيم رهبة لتوقف المعتدى عند حدة وتزجر الظالم وكان من يتولاها يمضى بعض ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه وكانت له سلطة أوسع من سلطة القاضى ويقول الماوردى عن هذه الوظيفة أنها تقارب مهمة القضاء وهى عبارة عن قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة وكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر نافذ الأمر عظيم الهيبة ظاهر العفة قليل الطمع كثير الورع لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة وثبوت القضاة ويحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين .

وقد كانت ولاية المظالم معروفة قبل الإسلام عند العرب إذ عقدت قريش فى الجاهلية حلفا على رد المظالم وأنصاف المظلوم من الظالم وسمى الحلف بحلف الفضول وهو ألا يظلم أحد الا منعه المتحالفون وأخذوا للمظلوم حقة (١) بقصد

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢١١ إلى ٢١٤ والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية بن قيم الجوزية ص ١٩

إنصافه إذ هى وظيفة نشأت لفساد الناس فكل حكم يعجز عنه القاضى ينظر فيه من هو أقوى منه يدا وكان الغرض الاساسى من إنشائها هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب أمثال العمال والآمراء .

وقد جلس عبد الملك بن مروان لنظر المظالم ومن بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه سنة ٩٩ إلى ١٠١ هجرية الذى رد مظالم بنى أمية عن المظلومين بعد أن عجز القاضى عن انصافهم من أولئك الجبابرة .

وقد حكى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تظلم إليه رجل من اليمن قال أن الوليد بن عبد الملك غصبه ضيعته فردها إليه بعد أن تأكد أن الحق معه واقتفى بنوا العباس أثر الدولة الاموية فكان أول من جلس لها الخليفة المهدى ثم الهادى ثم الرشيد ثم المأمون كما حكى أن المأمون كان يجلس للمظالم فأتته امرأة متظلمة فأخذ حقها من خصمها وهو ابنه العباس حيث أمر وزيره أن يجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون وأثناء نظر الدعوى إرتفع صوتها على صوت العباس فزجرها بعض الحجاب فقال له المأمون دعها فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه وكانت ظلامتها أن العباس بن الخليفة المأمون اغتصب ضياعها فأمر القاضى ردها إليها وباشر المأمون تنفيذ الحكم على ابنه أما أول من جلس بمصر من الامراء للنظر فى المظالم فهو الامير أبو العباس أحمد بن طولون فكان يجلس لذلك يومين فى الاسبوع وفى أوائل عهد الدولة الفاطمية أنشأت محكمة عليا لسماع المظالم تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية تتعلق برجل من ذوى الجاه والحسب ولهذا كان يتولى النظر فى المظالم بمصر رجل نافذ الامر جليل الرأى عظيم الهيبة كثير الورع قوى السلطان لا تأخذه فى الحق لومة لائم حتى يسمع كلمته الولاه وعمال الخراج وكان يرأس مجلس سماع المظالم الخليفة أو الوالى .

أشهر القضاة : كان رسول الله ﷺ يقضى بين المسلمين وكان يجمع السلطات الثلاثة من تشريع وقضاء وتنفيذ ولم يجعل لاحد ولاية القضاء وحدها بل كان

جزءاً من الولاية وكان القضاء في عهد النبي نوعا من الافتاء ، وكان غرض المتقاضين فيه أن يعرفوا حكم الله فيه لينفذوه فنجد مثلا أم سليم [١] تسأل النبي ﷺ فتقول أن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة غسل إذا احتلمت ؟ فقال الرسول نعم تغتسل [٢] وقد تولى عمر بن الخطاب القضاء في خلافة أبي بكر وكذلك الامامة وغيرها ويقول ابن خلدون في مقدمته ٢١٠ أن عمر بن الخطاب كان أول من عين القضاة إذ ولى شريح قضاء الكوفة عندما حكمه عمر في فرس أخذه من رجل لحكم لصالح صاحب الفرس ضد عمر فرضي عمر بعد له .

وقد قضى عمر بن الخطاب إلا أنه كان يستشير الامام على بن أبي طالب الذي قال عنه الرسول (أقضا كم على) كما دعى له قائلا (اللهم أهدى قلبه وثبت لسانه) « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ـ « من كنت مولاه فعلى مولاه » ـ « اللهم والى من والاه وعادي من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار » ، وقال ـ « طوبى لك يا على أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » [٣].

وقد حكى أن عمر بن الخطاب أتى بامرأة زنت فأقرت فأمر برجمها فقال الامام على رضى الله عنه لعل بها عذرا ثم قال لها ما حملك على الزنى قالت كان لى خليط وفي أبله ماء ولبن ولم يكن في إبلى ماء ولا لبن فظمئت فاستسقيته فأبى أن يسقني حتى أعطيه نفسي فأبيت عليه ثلاثا ، فلما ظمئت وظننت أن نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد فسقاني فقال الامام على رضى الله عنه الله أكبر فن أضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم .

---

(١) أسمها الغميصاء وكانت مع النبي يوم أحد وهي حامل ومعها خنجرا على وسطها ودنا منها أحد المشركين فبقرت به بطنه الطبقات لابن سعد ص ٣١٠ .

(٢) الموطأ ص ٢٩ .

(٣) والنحل للشهرستاني ص ٢٢٠ ومقدمة ابن خلدون ص ٢١٨ .

وفى السنن للبيهقى قال على هذه مضطره أرى أن يخلى سبيلها ففعل عمر (١) وتلك هى نظرية الضرورة فى القانون الجنائى الحديث إلا أن الاسلام سبق المشرع الوضعى باحدى عشر قرنا ويزيد .

وقد حكى أن عمر استشار الامام على ابن أبى طالب فى الخمر يشربها الرجل فقال أرى أن تضربه ثمانين كحد القذف فإنه إذا شربها سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى فجلد عمر فى الخمر ثمانين (٢) وقد كان عمر يساوى بين أفراد الرعية وإذا شكا من العامل (الحاكم) أحقر الرعيه وقف الاثنان موقف المساواة حتى يتبين الحق فى جانب أحدهما مراعيا فى ذلك قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وما قاله الرسول ﷺ (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر) (٣) لذلك كان العمال يخافون الافتضاح على رؤوس الاشهاد فى موسم الحج ويتجنبون ظلم الرعية ويسيرون بين الناس بالعدل والانصاف كعمر الذى ولاهم لذلك فإن الناس على دين ملوكهم إن كان الملك كافرا فالرعية كافره . وإن كان مسلما فالرعية مسلمة فعمر يقول للرعية « ياأيها الناس إنى والله ماأرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، جلودكم ، ولا يأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه وكتب إلى ولاته ، واجعلوا الناس عندكم سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم وإياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار (٤) كما كان يتحرى فى القاضى والعامل التقوى والعدالة والعلم والذكاء .

---

(١) الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص ٦

(٢) الموطأ ص ٣١١ . (٣) الترمزى ص ١٥٩ .

(٤) تاريخ الاسلام والخلفاء الراشدون للنجار ص ٢٢٩ .

أمثلة من قضاء الامام على إبن أبي طالب رضى الله عنه : لقد كان الامام على رضى الله عنه مستشارا لأبى بكر وعمر فى شئون الدنيا والدين وتفسير القرآن ورواية الحديث والقضاء حتى أن عمر رضى الله عنه قال لولا على لهلك عمر وقد كشف لنا التاريخ أن الامام على عليه السلام هو الحاكم المجهول الذى باخلاصه وعلمه وبعد نظره تم لدولة الاسلام أثناء الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده كل خير وتوفيق .

وقضى الامام على رضى الله عنه فى امرأة تزوجت فلما كانت ليلة زفافها أدخلت صديقها الحجلة سرا وجاء الزوج فدخل الحجلة فوثب إليه الصديق فاقتتلا فقتل الزوج الصديق فقامت إليه المرأة فقتلته فقضى بدية الصديق على المرأة ثم قتلها بالزوج وإنما قضى بدية الصديق عليها لأنها هى التى عرضته لقتل الزوج له فكانت هى المتسببه فى قتله وكانت أولى بالضمان من الزوج المباشر قتله قتلا مأذونا فيه ودفعا عن حرمته (١) كما قضى فى رجل فر من رجل يريد قتله فأمسكه له آخر حتى أدركه فقتله وبقربه رجل ينظر إليهما وهو يقدر على تخليصه فوقف ينظر إليه حتى قتله فقضى الامام على أن يقتل القاتل ويحبس الممسك حتى يموت وتفقأ عين الناظر الذى وقف ينظر ولم ينكر ورأى الامام تعزيره وقد حكى أن اثنان اختصما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما أن لى حمارا ولهذا بقرة قتلت حمارى فقال لأبى بكر اقض بينهما فقال لاضمان على البهائم فقال لعمر إقض بينهما فقال مثل ذلك فقال لعلى الذى قال أكانا مرسلين قال لا قال أكانا مشدودان قال لا قال كانت البقرة مشدودة والحمار مرسلا قال لا قال أفكان الحمار مشدودا والبقرة مرسلة قال نعم قال على صاحب البقرة الضمان ـ وبذلك يكون الاسلام بقضاء الامام على هنا قد سبق المشرع الوضعى فى نظرية الضمان بأحد عشر قرنا ويزيد

وقد حكى أن امرأة شهد عليها أنها قد بغت وكان من قضيتها أنها يتيمة عند رجل كثير الغيبة عن أهله فنشأت اليتيمة مع امرأة ذلك الرجل التى خافت أن

---

(١) الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص ٥٠ .

يتزوجها زوجها فدعت نسوه حتى أمسكنها فأخذت عذرتها باصبعها ولما قدم زوجها من غيبته رمتها المرأة بالفاحشة وأقامت البينه من جاراتها فصدقتها على ذلك فسأل الامام على رضى الله عنه المرأة ألكى شهود قالت نعم هؤلاء جاراتى يشهدن بما أقول فاحضرهن الامام وأحضر السيف وطرحه بين يديه وفرق بينهن وأدخل كل امرأة بيته ودعى امرأة الرجل فأدارها بكل وجه فلم تزل على قولها فردها إلى البيت الذى كانت فيه ودعى بإحدى الشهود وجثى على ركبتيه وقال قالت المرأة ما قالت ورجعت إلى الحق وأعطيتها الأمان وإن لم تصدقني لأفعلن ولأفعلن فقالت لا والله مافعلت إلا أنها رأت جمالا وهيبة فخافت فساد زوجها فدعتنا وأمسكناها لها حتى افتضتها بأصبعها فقال الامام على الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين فألزم المرأة حدالقذف وألزم النسوة جميعا العقر وأمر الرجل أن يطلق المرأة وزوجه اليتيمة وساق إليه المهر من عنده [١] .

وقد حكى أن امرأة ولدت لستة أشهر فأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه بأن ترجم فقال الامام على ليس لك عليها من سبيل إذ قال تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » وأخلى سبيل المرأه .

وقد حكى أن شكى إليه شاب نفرا أن هؤلاء خرجوا مع أبى فى سفر فعادوا ولم يعد أبى فسألتهم عنه فقالوا مات فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئاً وكان معه مال كثير وترافعنا إلى شريح فاستحلفهم وأخلى سبيلهم فدعى على بالشرط فوكل بكل رجل رجلين وأوصاهم الا يمكنوا بعضهم أن يدنوا من بعض ولا يسمحوا لاحد أن يكلمهم ودعى كاتبه ودعى أحدهم فقال أخبرنى عن أبى هذا الفتى أى يوم خرج معكم وأى منزل نزلتم ؟ وكيف كان سيركم ؟ وبأى علة مات وكيف أصيب بماله وسأله عمن غسله وكفنه ومن تولى الصلاة عليه ؟ والكاتب يكتب ثم دعى الآخر بعد أن غيب الاول من مجلسه فسأله كما سأل صاحبه ثم الآخر هكذا حتى عرف ماعند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بغير ما أخبر به صاحبه

---

(١) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ٦٠ .

فضيق عليهم الامام فأقروا بالقصة فأغرمهم المال وأقاد منهم بالقتيل [1] وكان الامام على رضى الله عنه لا يحبس فى الدين ويقول إنه ظلم وكان القضاء فى عهده مستقلا محترم الجانب عظيم الاجلال وكان القاضى غزير العلم واسع المعرفة يتساوى أمامه الرفيع والوضيع والمسلم والذمى عملا بقوله تعالى (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقوله عليه الصلاة والسلام « العدل أساس الملك » وقد كان عدله مع نفسه وذلك عندما اغتاله ابن ملجم بسيف مسموم وقال رضى الله عنه « إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

أى عدل هذا الذى أسسه رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام حكم نفسه واهله فعدل أمر نفسه فكان الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر حكم الناس كما حكم نفسه فسار العدل بالناس وبأصحابه الذين قال عنهم « أصحابى كالنجوم بأيهم اهتديتم اقتديتم » [2] فهم المعروف ونبت فى الأرض نبتا قطف منه الناس ثمارا هى الأمن المادى والروحى ولم يسبق فى الدنيا إن شاهدت ذلك الذى شاهدته فى ظل حكم أى حاكم من الحكام أو مصلح من المصلحين وتلك هى معجزة الاسلام التى بها اعتنق ملايين البشر ذلك الدين وجعلوه لأنفسهم مظلة يستظلون بها من عذاب الظلم ووقاية تقيهم شر الاسترقاق فى غياهب الضلالات وحماية تحميهم من سوء أنظمة المتألهين من البشر .

مشاهير قضاة مصر المسلمة : يوم دخل الاسلام مصر صار فيها قضاة صار فيها دعاة صار فيها شموس هدى وبذور إيمان وإصلاح زحف القضاة المحمديون إلى مصر لا طمعا فى لذة القضاء والسلطة والشهرة إنما طمعا فى الله وحده لقد إعتزوا بالاسلام عن كل شىء ولم يطلبوا الدنيا لأنهم لو طلبوها خسروها وخسروا الآخرة بل طلبوا الدين وإصلاح النفوس والعدل بين الناس فتم لهم

---

(١) القضاء فى الاسلام لعارف الكندى ص ٣٥ .

(٢) المبسوط للسرخسى جزء ١٦ ص ٨٣ .

ما أرادوا لأنهم كانوا يخلصون فيما يعملون بذلك كان العدل هو السلطان بل كان فوق السلطان وكان «أساس الملك» كما قال المصطفى الحبيب رسول الله ﷺ وقد كان الفقهاء ينظرون إلى القضاء كواجب يصعب على الانسان القيام به بطريقة ترضى الله والعباد لكثرة أشغاله وخطورة مسئوليته وقد دلنا التاريخ على أن بعض القضاة بمصر هددوا بالقتل إذا لم يتولوا القضاء فالقاضى أبو خزيمة إبراهيم الرعينى قاضى مصر من ١٤٤ سنة هجرية هدد بقطع رقبته ان أصر على إبائه وأتى فعلا بالسيف لقطع رقبته فعزت عليه واستسلم لطلب أمير مصر يزيد بن حاتم وكذلك القاضى الحارث بن مسكين أمره المتوكل على قضاء مصر فأبى فأكرهه أصحابه وكان القاضى لا يطلب القضاء بقلبه ولا بلسانه وكان رفضه خوفا من الوقوع فى الخطأ فينطبق عليه قول رسول الله ﷺ «القضاة ثلاثة واحد فى الجنة وإثنان فى النار فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار [1]» وقوله عليه الصلاة والسلام «من ولى القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين» وقد كانت وظيفة القضاء من أسمى الوظائف العامة تحاط بالهيبة وتقرن بالاجلال وكان للقاضى من التفرد وعلو المكانة ما جعل قواد الجند يوسطونه فيما بينهم وبين الخليفة إذا نشأ ما يوجب هذا التوسط كذلك لما ولى القضاء بمصر محمد بن الكندى سنة ١٧٧ هـ أرسل إليه الأمير بمصر عبد الله بن بن المسيب يأمره بحضور مجلسه فرفض .

وسنذكر بعض الحوادث التى تدل على سمو القضاء وعلو منزلته ونزاهته بمصر فى القرن الثانى للهجرة .

ولى توبه الحضرمى قضاء مصر سنة ١١٥ هـ فدعى امرأته وهددها بالطلاق إذا هى تدخلت فى أمر من أمور القضاء وروى أن خير بن نعيم الحضرمى القاضى أمر بحبس جندى فأرسل والى مصر فأخرج الجندى من الحبس فاعتزل خير

---

(١) أبو داود ص ١٤٧ .

القضاء وجلس فى بيته فأرسل إليه الوالى فرفض حتى يرد الجندى إلى مكانه (١).

وروى أن إبراهيم بن إسحاق قاضى مصر من قبل أمير مصر السرى بن الحكم قضى على أحد الخصوم فأمره السرى أن يتوقف عن تنفيذ الحكم فجلس القاضى فى منزلة فذهب إليه الامير يسأله الرجوع فقال لا أعود إلى ذلك المجلس أبداً ليس فى الحكم شفاعة وحكم أن القاضى عمران ابن عبد الرحمن قضى بحد كاتب الوالى لسكره فأراد حده فمنعه الوالى فقال عبد الرحمن لا أقضى أو أقيم عليه الحد فلم يصل إلى ذلك فترك الحكم (١) هكذا كان القضاء فى مصر المسلمة بكتاب الله وسنة رسوله والاجتهاد وكان هناك مساواة بين الرفيع والوضيع لم يكن قضاء على الفقراء للاغنياء من الفقراء لم يكن قضاء على الضعيف للقوى لم يكن قضاء كقضاء بنى إسرائيل كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد فهلكوا جميعا وحلت اللعنة عليهم وخربت دولتهم لأن الظلم (٣) خراب الدول وكتاب الله حجة على من ظلم واشترى به لذة الحياة الدنيا وحجة لمن حكم به فعدل ولم يرد علوا فى الأرض ولا فسادا بل أراد وجه الله والدار الآخرة .

وقد قال ستانلى بول : فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٢٩ قاضى مصر فى عهد الأمويين وصدر الدولة العباسية كان على خبرة اكتسبها من اشتغاله بالفقه الاسلامى وكان مشهورا لدى الجمهور بالاستقامة وسمو الخلق وكان لمركزه أهمية ولشخصه نفوذ كبير لذلك لم يكن يجرى عليه ما كان لغيره من العمال بل ظل القاضى فى كثير من الاحيان يشغل منصبه فى عهد ولاة عدة ولم يكن أسرع إلى القاضى من تقديم استقالته إذا تدخل فى أحكامه الشرعية متدخل وبلغ من محبة الناس للقضاء أن أصبح الولاه يفكرون طويلا إذا حدثتهم أنفسهم بالاقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور كما لم يعد للوالى فى العصر العباسى سلطة عزل القضاة بل صار تعيينهم يصدر بالمراسيم من بغداد وكذلك تحديد رواتبهم موكلة إلى الخليفة نفسه .

---

(١) كتاب الولاه والقضاه للكندى ص٣٥٦ (٢) المرجع السابق ص ٣٢٨

(٣) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص ١٨٢ وما بعدها .

وقد حكى أن القاضى أبا خزيمة الرعينى طلب إليه الوالى يزيد بن حاتم أن يطلق امرأة من زوجها الكفء لها مع أن وليها وهو عمها الذى كان قد زوجها منه فرفض لمخالفة ذلك للشرع الإسلامى فطلقها الوالى واكتفى القاضى بالاستمساك برأيه(١) وكذلك الحال مع القاضى غوث بن سليمان قاضى مصر سنة ١٥٨ هـ إذ ساوى بين الخليفة العباسى أبى جعفر وبين امرأة شكته إليه فى مجلس القضاء وظهر معظم القضاة فى هذا العصر متمسكين بالمثل العليا والفضائل محافظون على إقامة شعائر الدين والخطابة يوم الجمعة بالمساجد ويضربون للناس القدوة الحسنة فى جميع شئون البلاد إذ كان أبو خزيمة إبراهيم نزيها إلى أقصى ما يتصوره الذهن فكان لا يأخذ أجراً عن اليوم الذى لم يقم فيه بعمل . كذلك عبد الله بن خزام قاضى مصر سنة ١٠٠ هـ بالغ فى التمسك بالمثل العليا حتى منع نفسه من راتب الوظيفة إذ ذكر الكندى أنه لم يأخذ أصلا أجراً عن وظيفته(٢) اقتداء بعمر ابن عبدالعزيز فى زهده وتقشفه وروى الكندى فى كتابه ص٥٠٩ أن ابن طولون حاكم مصر كان يغلوا فى إكرام قاضيها بكار بن كتيبة وكان يؤدى له فوق مرتبه ألف دينار فى كل عام وقد جعل القاضى يضيف جديدها إلى قديمها مختوماً كما هو حتى أحس من ابن طولون نزوعا إلى قبض ثمن هذا الإكرام من ضمير القاضى لإخضاعه لما يريد من أمر نفر غاضبا وحمل المال كاملا كما هو إلى ابن طولون مستبقيا لنفسه استقلالها ولضميره حياته ولقضائه حصانته وترفعه ولعدله نزاهته وتجرده ولمن يخلفونه على هذه المهنة المقدسة النموذج الحسن والمثل الطيب وانتهى ابن طولون الحاكم بماله وخلد بن كتيبة القاضى فى ديوان الخالدين يذكر كما يذكر ابن الخطاب فى عدله وزهده وتقشفه ليس ذلك فحسب بل كل ذى ضمير حى يرجوا الله واليوم الآخر لا يود أن يكون كابن طولون فى ظلمه وخيانته بل يرجو أن يكون كبكار الذى عاش فى محراب العدل ناسكا يتقرب إلى ربه كيف يكون حال أمة خلقها الإسلام فى سنوات معدودة وجعل من فقهائها قضاة حكموا بالنور الذى أنزله الله من سبع سموات بالهدى المبين بكتاب الله الذى

---

(١) كتاب الولاه وكتاب القضاة للكندى ص٣٦٧ و ٣٦٨ .

(٢) المرجع السابق للكندى ص٣٣٩ .

لا يأتيه الباطل ولا يعتريه تبديل وجعلوا مهنة القضاء بين الناس عبادة ورفضوا أن يكون لها أجراً لأنهم دعاة إصلاح زعماء لأرواح أمصار فلاح نظروا إلى الأمة ومشاكلها وكأنها أسرتهم ومشاكلهم فجندوا أنفسهم لحلها ونذروا أنفسهم لله ولخير الأمة وعلى أسس عدلهم تأسس الملك وتم للإسلام النصر ولشريعته فى النفوس رسوخ ذلك لأن دولة الإسلام بالظلم تزول ودولة الكفر بالعدل تدوم . كذلك منصة القضاء فى عصر لم تنس الإمام محمد عبده والذى شرفها بجلوسه قاضيا يفرق بين الحق والباطل ويدعو إلى إصـــلاح النفوس وطهارة السلوك وقوة الإيمان ونظافة الضمير فكان خير من شرف القضاء داعيا من دعاة الدين والإصلاح فى زمنه [1] .

نداء إلى قضاة الإسلام : لقد قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس عن هذا الإسلام الذى أورثنا الله (إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله) لم تسيطر دولة فى الشرق والغرب كما سيطرت دولة الإسلام كذلك لم تعش دولة قدر ما عاشت دولة الإسلام ولم يترك التاريخ حضارة كحاضرته فى العلوم والفقه والاقتصاد والقضاء وهذا أكبر كتاب الغرب برنارد شو يعترف ويقول إن محمد يجب أن يكون منقذ الإنسانية ولو أن رجلا مثله تولى قيادة العالم الحديث لنجح فى حل مشاكله بطريقة تجلب للعالم السلام والسعادة الذين هو فى أشد الحاجة إليهما ويزداد الكاتب فى دراسة الشريعة الإسلامية فيعترف بها ويقول إن الإسلام سيكون دين أوروبا .

عندما سكر المسلمون بخمر الدنيا وفتنهم بهرجها وخلعهم حبها وأسرهم زيفها وسرى فى عروقهم عبـــادة مادياتها فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وهجروا رسول الله منقذ الاسلامية وداسوا بأقدامهم كل مقدس وكرهوا الموت فى سبيل الله وظلوا الحياة والمال حراما كان أم حلالا صاروا لقمة سائغة فى فم الاستعمار والمتفعين به الذين صنعهم الاستعمار على يده حكاما للبطش بالاسلام ودعاته

(١) نهج البلاغة جـ١ ص١٠ طبعة دار الشعب .

للتفريق بين الأمة الواحدة وجعلها شيعا وأحزابا ومذاهب شتى ومسخ العقيدة من عقول الشباب ليحل محلها ما يناقض الدين الذى استشهد من أجله مئات الألوف من خيرة جند الاسلام ودعاته ليت ذلك فحسب بل دخل الاستعمار ووضع القوانين المسلمين فصاروا لا مسلمين ولا أوروبيين بل أصبحوا رجراجة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أى بلا جنسية ولا طعم ولا صبغة (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) ضاعت وزالت وقد وضعت فى مصر وسوريا وليبيا والعراق وتونس قوانين فرنسية الأصل وفى السودان قوانين أصلها هندى وإنجليزى وفى تركيا قانون سويسرى فى تلك القوانين أباح الاستعمار ما حرم كتاب الله وألفت الدهماء ذلك الحرام وصار سنة والقلة المسلمة المصلحة فى صراع داخلى وخارجى وها هو الشيخ محمد عبده يقول سنة ١٩٠٥ [إرتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى أما الأمر الثانى فهو إصلاح أساليب اللغة العربية وهذا ما قاله الإمام مالك بن أنس أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما أصلح به أوله فالسير خلف الكتاب الذى قال الله فيه (فيه شفاء لما فى الصدور) أى شفاء لأمراض المجتمع الظاهرية والتى تتمثل فى الانحلال والجريمة وسوء الأخلاق والأمراض الباطنية التى تتمثل فى الكفر والالحاد ومحاربة الايمان والسير خلف رسول الله القاضى الأول الذى وضع دستوراً للعدل عم به السلام والأمن ووضع مدرسة تخرج منها قضاة هم بالليل رهبان وفى المعارك أسود وبالعقيدة علماء وفى الدنيا زهاد وبين الأمة أئمة دعاة خير وصلاح فكانوا كما قال الله عنهم فى التشريع القرآنى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وكما قال رسول الله ﷺ عن خير الناس « آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأصلحهم » فليس خير الناس فى الاسلام أكثرهم علما وأفصحهم لسانا وأكثرهم مالا وأشرفهم نسبا وأعظمهم سلطانا[1] .

---

(١) راجع المنهج العلمى المعاصر المستمد من القرآن الكريم للفقية المستشار عبد الحميد الجندى الحائز على جائزة الدولة التقديرية .

يا قضاة الاسلام أنتم رعاة الأمـة أنتم خلفاء القاضى الأول أنتم ورثة الانبياء أنتم الأمناء على أرواح الأمة وأموالها ودمائها وأعراضها أنتم الحكام إذا حكمتم زمام أنفسكم فلم تخضعوا لها أنتم القضاة إذا قضيتم على شهوات أنفسكم وأطماعها انتم القضاة إذا كان الحق طلبكم والعدل غايتكم والموت فى سبيل الله اغلى أمانيكم أنتم القضاة إذا كان نور الله يهديكم وشفاء لما فى صدوركم انتم دعاة الاسلام لمن لا يعرف الاسلام فى محراب عدلكم أنتم رسل الفضيلة بنزاهتكم أنتم عنوان دينكم بطهارتكم أنتم أمل الأمة بإخلاصكم أنتم ترجمان الحق بالتجرد فى أحكامكم أنتم صوت الضمير الحى فى إيمانكم أنتم خلفاء الله بصلاحكم أنتم الانسان فى أحسن تقويم بسمو عقلكم أنتم جيش العدل دحر به من حاربكم أنتم علم العصر وصوره الأمة وعنوان الناس وأمل المظلوم وأمان الخائف وأعداء الظالم أنتم الرعاة إذا صلح الراعى صلحت الرعية وإذا فسد فسدت كذلك لأنه فى الأمة كالقلب فى الجسد إذا فسد القلب فسد الجسد كله والويل كل الويل لأمة تغيب عنها شمس الاسلام[1] لن تغشاها إلا ظلمات بعضها فوق بعض فى بحر لجى ذاخر بالفتن والأضاليل حيث يكون مجتمعها جسداً ميتا بلا روح وتتحول الانسانية إلى همجية ووحشية يحكمها الحديد والنار وتنقلب معايير الأخلاق والقيم وتضطرب القوانين وتنحط الفنون والآداب والمعارف ويرسف الانسان فى ظل عبودية الانسان ويظهر كيان المجتمع متناقضا وكأنه ثوب مرقع .

سلطة الحاكم فى الإسلام

جاءت الشريعة الاسلامية فلم تطلق سلطة الحاكم بل قيدتها وجعلتها قائمة فى حدود معينة ليس له أن يتجاوزها ومسئولا عن عدوانه وأخطائه وللأمة حق عزله .

أولا فيما يتعلق بسلطة الحاكم كانت سلطة الحاكم مطلقة قبل الاسلام لا حد لها

---

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص٥ .

ولا قيد عليها وكانت علاقة الحاكم بالمحكومين قائمة على القوة وإذا كان السلطان قويا زاد نفوذه وإن ضعف — ضعفت سلطاته وإن نافسه آخر وقهره استطاع القاهر أن يتحكم فى رقاب الرعية والتى تعتبر خدما وعبيداً لصاحب السلطان سواء ورث سلطانه أم اكتسبه ليست ذلك فحسب بل ثروة الأمة وعرق عمالها ملك الحاكم الذى يعتبر نفسه مالكا لقطيع من الأغنام .

وإذ جاءت الشريعة الإسلامية فغيرت تلك الأوضاع البالية التى عاش فيها المحكوم كشاة فى قطيع وخلفت أوضاعا تتفق مع الكرامة الإنسانية فجعلت أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم تحقيق مصلحة الجماعة لا قوة الحاكم وضعف المحكومين وتركت للجماعة حق اختيار الحاكم الذى يرعى مصلحتها ويحفظها وجعلت لسلطة الحاكم حدوداً ليس له أن يتعداها وإن خرج على تلك الحدود اتصف عمله بالبطلان .

وقد بينت الشريعة مهمة الحاكم وحددت حقوقه وواجباته فمهمة الحاكم أن يخلف رسول الله ﷺ فى حراسة الدين وتوفير الأمن والنظام وإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام وحفظ الثغور والجهاد والاشراف على الأموال العامة فى جبايتها وإنفاقها والاشراف على الموظفين الذين يتولون كل هذه المهام [1] .

والامامة أو الخلافة عقد لا ينفذ إلا بالرضى والاختيار وبموجب هذا العقد يلزم الامام أى الحاكم أن يشرف على شئون الأمة فى الداخل والخارج بما يحقق مصلحتها بشرط أن يكون ذلك فى حدود ما أنزل الله على رسوله وفى مقابل التزام الحاكم بذلك الالتزام تلتزم له الأمة على لسان نوابها أن تسمع له وتطيع .

وسلطة الحاكم ليست مطلقة وليس له أن يفعل ما يشاء ويدع ما يشاء وإنما هو فرد من أفراد الأمة اختير لقيادتها ويتقيد بألا يخرج على نصوص الشريعة

---

(١) الأحكام السلطانية ص٣ : ص١٧ .

طبقا لقوله تعالى (وإن أحكم بينهم بما أنزل الله) - (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) وإذا كان الامام أى الحاكم يتقيد بما أمرت به الشريعة وما نهت فما أباحته الشريعة لأى فرد يباح للحاكم وما حرمته يحرم عليه

ثانيا فيما يتعلق بمسئولية الحاكم عن عدوانه وأخطائه ـ لقد جعلت الشريعة الحاكم مسئولا عن عمله إذا تجاوز بذلك الحدود التى حددها الشرع له سواء وقع العمل عمداً أم نتيجة إهمال وتلك المسئولية هى أعلى درجات العدل والمساواة إذ لا فرق بين حاكم ومحكوم إذا وقع الفعل على غير ما أمرت به قواعد الشريعة الاسلامية إذ لا امتيازات ولا محسوبية ولا حصانة ولا تفضيل الكل سواء أمام شريعة الله التى جعلت الفضل للتقوى كما جاء فى التشريع (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وكما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام « الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

ثالثاً : حق الأمة فى عزل الحاكم لقد جعل الاسلام بين الحاكم والأمة عقداً على هديه يقوم الحاكم بواجبه وتلتزم الأمة بواجبها فى حدود نصوص الشريعة فالحاكم الذى لا يتعدى حدوده المرسومة فى الشريعة له السمع والطاعة أما الحاكم الذى يخرج على حدود التشريع ولا يقوم بالتزاماته فليس له أن ينتظر من الأمة السمع والطاعة وعليه أن يتنحى عن مركزه لمن هو أقدر على الحكم فى حدود ما أنزل الله وإن لم يتنح نحاه الشعب مكرها واختار غيره . والله يأمر بطاعة أولى الأمر فيقول (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) والرسول عليه الصلاة والسلام يقول « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، إنما الطاعة فى المعروف » ويقول فى الولاة « من أمركم منهم بمعصية فلا سمع له ولا طاعة » .

وقد قال خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر عليه الرضوان [أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ...

ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم [١] وعندما ولى عمر بن الخطاب كان حريصا على إظهار تلك المعانى فقال (لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر تذهب بنا شرقا وغربا فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم فإن استقام إتبعوه وإن ضنف قتلوه) فقال طلحة وما عليك لو قلنا إن تعوج عزلوه) قال لا « القتل أنكل لمن بعده » [٢] .

وقد أعطى أبو بكر القود من نفسه وأقاد للرعية من الولاه وقال عمر بن الخطاب مثل ذلك وتشدد فأعطى القود من نفسه أكثر من مرة ولما قيل له فى ذلك قال رأيت رسول الله ﷺ يعطى القود من نفسه وأبى بكر يعطى القود من نفسه وأنا أعطى القود من نفسى [٣] وقد أخذ عمر الولاة بما أخذ به نفسه فما ظلم وال إلا أقاد من الوالى للمظلوم .

هكذا سبقت الشريعة الاسلامية سائر القوانين فى تقييد سلطة الحاكم وتعيين الأساس الذى تقوم عليه العلاقة بين الحاكم والمحكومين وقد جاء القانون الانجليزى أول قانون وضعى اعترف بسلطان الأمة على الحكام وكان ذلك فى القرن السابع عشر أى بعد إن جاءت شريعة الاسلام بأحد عشر قرنا .

مميزات التشريع الاسلامى

لقد تميز التشريع الاسلامى أولا بمزجه بين الدين والدنيا إذ شرع للدنيا والآخرة وذلك هو السبب الوحيد الذى حمل المسلمين على طاعته سرا وعلنا إذ الانسان يثاب على الطاعة ويخاف من ارتكاب الجريمة مخافه العقاب الدنيوى والأخروى ذلك أن الله مطلع على كل ما يفعله الانسان صغيرا وكبيرا فى السر

---

(١) راجع تاريخ ابن الأثير جـ ٢ : ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ٣ : ص ٣٠ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١١٣ .

(٣) الأم جـ ٦ ص ٤٤ والخراج لابن يوسف ص ٦٥ .

والمان إذ هو الرقيب الحسيب وأقرب للإنسان من حبل الوريد ويعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور كل ذلك يدعو إلى قلة الجرائم وصيانة الأمن وحفظ النظام للجماعة أما القانون الوضعى فليس له فى نفوس من يطبق عليهم ما يحملهم على طاعته إذ لا يطيعونه إلا بقدر ما يخشون من الوقوع تحت طائلته إذ من استطاع أن يرتكب جريمة وهو آمن من سطوة القانون فلن يتردد فى ارتكابها إذا نضب فى داخله وازع الدين والأخلاق لذلك تزداد الجريمة فى البلاد التى يسودها القانون الوضعى ويكثر المجرمون فى الطبقات المثقفة تبعا لزيادة الفساد الخلقى والقدرة على التهرب من سلطان القانون .

ثانياً : أحكام التشريع الاسلامى لا تتجزء ولا تقبل الانفصال : ذلك أن نصوص التشريع تمنع من العمل ببعضها وإهمال البعض الآخر كما تمنع من الإيمان ببعضها والكفر ببعض وتوجب العمل بكل أحكامها والإيمان إيمانا تاما بكل ما جاء به وذلك يتجلى فى قوله تعالى (أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاخزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) كذلك قال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

ثالثا : شريعة الهية عالمية كاملة أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ ليبلغها للناس من عرب وعجم على اختلاف مشاربهم وعاداتهم وتقاليدهم فهى شريعة كل أسرة وكل جماعة وكل دولة بل هى الشريعة العالميـة وذلك فى قوله تعالى (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) ـ « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .

كذلك نزلت الشريعة كاملة لا نقص فيها عملا بقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فالشريعة جاءت كاملة لا نقص فيها شاملة أمور الأفراد والجماعات والدول فيها حل لجميع الأحوال الشخصية

وتنظيم لشئون السياسة والاقتصـــاد والحكم والادارة وعلاقة الدول بعضها ببعض فى زمن السلم والحرب وأن الشريعة لم تأت لوقت معين أو عصر معين وإنما هى شريعة لكل وقت ولكل مكان وشريعة الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها لذلك فهى شريعة أبدية لا تقبل التغيير ولا التعديل إذ أنها من عند الله يتمثل فيها بجلاء صفات الصانع ليست كالقانون الوضعى الذى يظهر فيه نقص البشر وعجزهم وضعفهم وقلة حيلتهم إذ من المستحيل أن يكون قانون البشر كاملا وصانعه لا يمكن أن يوصف بالكمال ولا يستطيع الاحاطة بما سيكون إن استطاع الاحاطة بما كان .

رابعا : تشريع الاسلام نصوصه مرنة وعامة : تتسع لحاجات الجماعة مهما طالت الأزمان وتعددت الحاجات ، وتنوعت وهى من السمو والكمال إلى درجة أنها لا تماثل القانون ولا تساريه ولا يصح أن تقاس به لأن القاعدة أن القياس يقتضى مساواة المقيس بالمقيس عليه فإذا انعدمت المساواة فلا قياس أو كان القياس باطلا ومن يقيسون القانون بالشريعة كمن يقيس الناس برب الناس فإن التشريع الاسلامى هو الذى خلق الجماعة بعكس القانون الوضعى هو الذى تخلقه الجماعة كى ينظم المصالح العامة للأفراد ومن ثم كان القانون متأخراً عن الجماعة فالتشريع الاسلامى من خلق الله سبحانه وتعالى جاء ليخلق الفرد الصالح والأمة الطيبة والدولة المثالية والعالم المثالى لذلك جاءت نصوص التشريع ارفع من مستوى العالم كله وقت نزوله حتى اليوم وجاء فيه من المبادىء والنظريات ما لم يتهيأ العالم غير الاسلامى لمعرفته والوصول إليه إلا بعد قرون طويلة وإذ يقرر التشريع الاسلامى المساواة فيقول الله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) كذلك التشريع يقرر المساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات كقاعدة عامة ولم تسمح القوانين الوضعيه بالمساواة بينهما إلا فى القرن التاسع عشر وفى مجال الحرية الفكرية والعقيدية والسياسية كان للتشريع الاسلامى فضلا وسموا لم يصل إليهما تشريع وضعى لتنظيم المجتمع الانسانى .

خامساً : التشريع الاسلامى حريص على حماية الأخلاق : لحرم الزنا وتخنث الرجال والنساء وحارب الفتن ما ظهر منها وما بطن وحرم الخمر والربا ودعى إلى خلق الفضيلة والسمو بالفرد المسلم فصنع من رعاء الإبل سادة للعالم ومن جهال البادية معلمين وهداه للانسانية . وقد أدت الشريعة وظيفتها بعد أن ـ تمسك بها المسلمون الأوائل وعملوا بها وهم قلة مستضعفه يخافون أن يتخطفهم الناس فإذا هم فى عشرين عاما سادة العالم لا كلمة إلا كلمتهم وصنعوا المعجزات بفضل ذلك التشريع العظيم الذى أدبهم وصنعهم كما أراد الله نفوسا صافيه وعقولا حره خالصة من يد الشهوات والخبائث وصاروا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأن ما وصل إليه المسلمون اليوم من تأخر وإنحلال وإنحطاط إنما كان نتيجة ترك ذلك التشريع وإهماله فعادوا يتقهقرون إلى الظلمات التى كانوا فيها يعمهون حيث الاختلاف والفرقة والتنازع فذهب ريحهم وضاعت هيبتهم وانحطت كرامتهم وصاروا فريسة لكل طامع يتسارع لنهبهم كل ناهب كما يتسارع الأكله إلى الطعام . ولو أراد المسلمون لأنفسهم الخير لعادوا إلى الله تائبين معترفين بذنوبهم وتقصيرهم وجرمهم فى حق الله ليتمسكوا بشريعتهم الغراء فيعود لهم مجدهم العابر ويتحقق قول الله لهم (إن عدتم عدنا) ـ (ولينصرن الله من ينصره) .

وإن التاريخ لخير شاهد على أن الشريعة الاسلامية هى التى خلقت المسلمين من العدم وجعلتهم فوق الأمم ودفعتهم إلى الامام وأن حياة المسلمين وتقدمهم ورقيهم يتوقف على تطبيق الشريعة الاسلامية إذ المسلمون من صنع الشريعة كيانهم من وجودها وسلطانهم تابع لسلطانها وإذا نظرنا إلى ما يضعه البشر من قوانين وجدنا كم أبيح الربا فى المعاملات بين الناس حتى أصبحت علاقة الأخ بأخيه قوامها المادة والربح ونسى الفضل والعفو وكم أبيح الخمر صناعة وبيعا وشراء وشربا وكم أبيح الزنا واندرج تحت تعاريف مغايرة وكم أعطيت للافراد حريات دون ضابط حتى صاروا يهيمون للشهوات كالسوائم فانحطت الأخلاق وهجرت الفضائل وندرت القيم ورخصت وكثرت الرذيلة وانبعث وبدت صورة

المجتمع الانسانى مشوهه ليس له من الانسانية إلا الاسم دون المعنى والجوهر . ولن يغير الله ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا وقلوبنا ونؤمن بالكتاب كله وذلك وعد الله إذ يقول « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

مصادر التشريع الاسلامى

أولا - القرآن : وهو كتاب الله المنزل على رسوله سيدنا ﷺ ولا خلاف بين المسلمين فى أن القرآن من عند الله وأنه حجه على كل مسلم ومسلمه وأحكامه واجبة الاتباع أيا كان(١) نوعها ويقاس إسلام المسلم بمدى اتباعه لأحكام القرآن والتى شملت العقائد والعبادات وتنظيم الدولة والجماعة وعلاقات الأفراد وقصد من أحكام القرآن إسعاد الناس فى الدنيا والآخرة فكل فعل دينوى له أثره الأخروى وذلك يتمثل فى قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) إذ وضع الإسلام عقوبة القصاص فى الدنيا والعذاب الاليم فى الآخرة للقاتل وكذلك وضع عقوبة لرامى المحصنات فقال (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) كذلك آكل الربا والسارق والمرتد وقاطع الطريق لهم عقوبة دينوية وأخرى أخروية إذ الانسان يجزى بما يفعل إن خيرا فلنفسه وان شرا فعليها وجزاء الدنيا لا يمنع من جزاء الآخرة إلا إذا تاب الانسان وندم على مخالفة أوامر الله .

ان القرآن الكريم أقوى معجزة فى العالم إنه منبع الدساتير الفياض بالعدل والاصلاح نصوصه فيها حلاوة وعليها طلاوه تخاطب البشرية فى كل زمان ومكان يخاطب العقل والروح والقلب لا يقبل التحريف ولا التغيير ولا التبديل وقال تعالى عنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة) وقال ﷺ « ستكون فتن كقطع

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى ص ٩٧ للمؤلف

من الليل المظلم قيل يا رسول الله وما المخرج منها قال (كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس الهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن إبتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم) .

ولقد قال الوزير البريطانى جلادستون (إن قدم الامبراطورية الانجليزية لن ترسخ فى بلاد الاسلام ما دام القران موجودا) فأصبح هم الاستعمار هو أن يحطم القران ويلغيه ويجعله شيئا رخيصا مهجورا ويجعل كل داعية قرانى مكروها محقورا بل ذليلا منبوذا وكيف للاستعمار أن يحقق هذا الذى يريده أولا كى يضع رأس العالم الاسلامى تحت قدميه فيأ كل خيراته ويجعل منه عبداً تابعا ذليلا ؟ أهل يبدأ بنفسه حربا علنية عماجمة الدين الاسلامى بحرق القران وأهله ؟ لقد فكر فى ذلك ونفذه فعلا ولكن خذله الله إذ اتحدت القلوب بالقران وخلف القران طالبه الموت فى سبيله معتصمة به فتم النصر للاسلام ودحر الله عدوه وفشل الاستعمار فى تلك الحرب العلنية أخيرا فكر الاستعمار فى شراء ضمائر الحكام الذين فتح لهم أبواب حضارته وثقافته فأسرهم بما دياته فصاروا له عبيداوصار يحكم أمة الاسلام مسلمون هم يدالاستعمار ورجله وعقله لل أسراه ففصلوا بين العلم والدين بين السياسة والأخلاق بين الدين والدولة وأبعدوا القرآن عن كل شيء وأباحوا كل مرذول وتبعوا الاستعمار فى كل صغيرة وكبيرة أى ورد لهم كل شيء وبخل عليهم بكل عظيم أى أعطاهم السيئات وأخذ منهم الحسنات . هكذا تم للاستعمار ما أراد عندما قضى على القرآن وجعله نصوصا ميتة باطلة المفعول لا وجود لها على مسرح الحياة اليومية للافراد والأمة وخصصه ليتلى على مقابر الأموات وليكون أحجبه وتمائم وسببا من أسباب البركة وطرد اللصوص ليت العداء الاستعمارى وقف عند هذا الحد بل أعدم كل داعية قرآنى يريد القرآن كما أراد الله لا كما أراد أعداؤه ثم نشر مبادىء لتشكيك الشباب ليكفروا بالقرآن ويجعلوه أمراً منسيا ليضمن القضاء على فرض الجهاد القرآنى المقدس وهو من أشرف العبادات الاسلامية وأعظمها .

ماذا قال الله فى القرآن :

كى نعلم مكانه القرآن كمصدر من مصادر التشريع علينا أن نقرأ قول الله فى القرآن لرسوله للامة المسلمة (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم)

وقوله تعالى (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين) (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم .

وقوله تعالى « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وقال تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) .

(وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله عليك) .

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق)

(أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)
(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) .

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) - (ومن لم يحكم بما أنزل

الله فأولئك هم الظالمون) - (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)
ولقد عبر الله عن الكفر بلفظ الظلم فقال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) -
(والكافرون هم الظالمون) - « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » كذلك عبر القرآن
عن الكفر والظلم والفسق من ذلك قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات
وما يكفر بها إلا الفاسقون » - «إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون»
« ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

سلطان القرآن : لولا أن سلطان القران أعلى من أى سلطان على نفوس
المسلمين لما سعى الاستعمار لعزل المسلمين عن القرآن وإبعادهم عن تعاليمه
حتى لا يكون له سلطان عليهم فيتشتت المسلمون فى الأرض فرقا وأحزابا
وأجناسا وقوميات ذلك أن القرآن هو حبل الله المتين الذى يعتصم به المسلمون
ويخلق منهم جسدا واحدا وقلبا واحدا ودولة واحدة فالقرآن يسرى فى روح
كل مسلم كما يسرى الدم فى العروق القران يسيطر على كل مسلم فى حركاته وتفكيره
وقوله وفعله وسره وجهره يسيطر عليه فى مأكله وملبسه ومعاملاته وفرحه
وحزنه وفى بيته وأهله وسلمه وحربه حاكما ومحكوما غنيا وفقيرا المسلم يقدم
على الموت مغتبطا طالما أن ذلك بدعوة القران المجيد الذى قال فيه المشرع عز
وجل (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)
لذلك سابق كل مسلم أخاه فى الجهاد طلبا للاستشهاد أى سلطان لأى قانون على
وجه الارض كالقران أى سلطان لأى حاكم فى نفوس المحكومين كالقران .
الحقيقة أن كل السلطات المؤقتة لا قيام لسلطاتها إلا على الأجساد دون الارواح
بالقهر والخوف والبطش أو الطمع فى المنافع المادية المؤقتة أو الشهوات الزائلة
أو اللذائذ البائدة . أما سلطان القران فقد هيمن على روح المسلم وقلبه وفكره
فباع جسده وماله لله طلبا للحياة الابدية بذلك السلطان الروحى والمادى للقران
فى نفوس المسلمين ظهرت أكبر دولة فى العالم فقضت على أكبر امبراطوريات
التاريخ وأعرقها حضارة ومجدا فى ظرف عشرين عاما فكانت معجزة السماء بالقرآن

الذى جاء نورا من عند المليك ومعجزة القران فى الأرض الدى خلق فيها أكبر دولة وأعظم حضارة وأنبل نظام وأسمى أمة .

ثانيا : السنة

السنة هى ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير فالسنة القولية هى ماقاله الرسول فى مختلف المناسبات مثل قوله لايحل قتل امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بدون نفس وكقوله فى عقوبه الزانى الذى لم يحصن « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والسنة الفعلية هى أفعاله ﷺ مثل قضائه بالعقوبة فى الزنا بعد الاقرار وقطعة اليد اليمنى فى السرقة والسنة التقريرية هى ما صدر عن بعض أصحاب الرسول من أقوال أو أعمال أقرها الرسول ﷺ بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه فيعتبر عمل الصحابى أو قوله بعد أن أقره الرسول كأنه صادر من الرسول .

مكانه السنة من القرآن : السنة من الناحية التشريعية إما سنة تقرر وتؤكد حكما جاء به القرآن فيكون الحكم مرجعه القران والسنة معا كجريمة القتل بغير حق والسرقة وإما أن تكون سنة مفصلة مفسرة حكما جاء به القرآن مجملا أو مقيدة ما جاء به القران مطلقا أو مخصصه ما جاء فيه عاما فيكون هذا التفسير أو التقييد أو التخصيص الذى جاءت به السنة بيانا للمقصود من الحكم الذى جاء به القرآن لأن الله جعل لرسوله حق البيان لنصوص القران بقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) فالسنة هى التى فصلت كيفية إقامة الصلاة والحج وإيتاء الزكاة ـ والسنة قيدت وخصصت كثيرا من أحكام القران فنصوص القران أحلت البيع وحرمت الربا والميتة والسنة قيدت هذا الاطلاق وخصصت التحريم وبينت ما يحل من أنواع الميته والدم ونصوص القران جعلت الميراث للاولاد والسنة منعت ميراث القاتل والقران يعاقب السارق بالقطع والسنة منعت القطع إلا فى ربع دينار فأكثر والسنة تكون

مثبته حكما سكت عنه القرآن فيكون الحكم أساسه السنه وليس له دليل فى القرآن كقول الرسول (لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها) وكقوله فى تحريم الذهب والفضه (هذان حرامان على رجال أمتى حلالان لنسائها) وكقوله (يحرم من الرضاع مايحرم من النسب) .

وقد اعتبرت أحكام السنه واجبه الاتباع وذلك بقوله (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) (قل أطيعوا الله والرسول) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) (وما كان لمؤمن ولا مؤمنه إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

فالسنه هى تشريع واجب الاتباع بنص القرآن وقد أجمع الصحابة فى حياة الرسول وبعد وفاته على وجوب اتباع سنته فكانوا فى حياته يمضون أحكامه يحلون ما أحل ويحرمون ماحرم وبعد وفاته كانوا إذا لم يجدوا حكما فى القرآن لقضيه جدت عليهم سألوا عن سنه الرسول فيها .

فهناك أفعال تصدر عن الرسول لا يشاركه فيها أحد أما الأفعال التى صدرت عنه صلى الله عليه وسلم بقصد البيان والتعليم والارشاد فهى تشريع ملزم ومثل ذلك قوله (صلوا كما رأيتمونى أصلى) (خذوا عنى مناسككم) ومثل ذلك ماروى عنه من أن أم سلمه سألته عن قبله الصائم فقال لها (لم لم تقولى لهم أنى أقبل وأنا صائم) ولما سألته عن بل الشعر فى الاغتسال قال (اما أنا فيكفينى أن أحثوا على رأسى ثلاث حثيات من ماء وعند اختلف الصحابة فى الغسل من غير انزال فانفذ عمر إلى عائشة رضى الله عنها وسألها عن ذلك فقالت فعلته أنا ورسول الله اغتسلنا فاخذ عمر الناس بذلك .

ثالثا : الاجماع : — [١] وهو اتفاق جميع المجتهدين فى الأمة الإسلامية على حكم شرعى وأساس الاجماع فى القرآن الكريم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ويقصد بأولى الأمر الحكام والعلماء فكل منهم ولى أمر فى عمله كذلك قال تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) والمقصود هنا بأولى الأمر العلماء وفى السنة اعتبر رأى الجماعة ثوابا خالصا والرأى المجتمع عليه حسنا عند الله إذ قال الرسول ﷺ (لا يجتمع أمتى على خطأ) (لم يكن الله ليجمع أمتى على ضلاله) (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن) ويقول الإمام أحمد خلاف واحد لا ينقض الاجماع .

رابعا : القياس : — وهو الحاق مالا نص فيه بما فيه نص فى الحكم الشرعى المنصوص عليه لا شتراكهما فى علة هذا الحكم وللقياس أربعة أحكام المقيس عليه هو الأصل الذى ورد النص ببيان حكمه والمقيس وهو الأمر الذى لم يرد نص بحكمه ويراد معرفة حكمه ويسمى بالفرع والحكم الشرعى وهو الذى ورد به النص فى الأصل ويراد الحكم به على الفرع والعلة وهى الوصف الذى شرع الحكم فى الأصل لأجله وتحقق فى الفرع [٢] وأنصار القياس حجتهم فى أن النبى صلى الله عليه وسلم أقر القياس حين سأل معاذا بما تقضى ؟ قال أقضى بكتاب الله فان لم أجد فبسنه رسول الله فان لم أجد اجتهد رأى فأقره الرسول على قوله كذلك عند تشاور الصحابة فى حد شارب الخمر قال الإمام على أنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى فحدوه حد المفترى فقاس حد الشارب على حد المفترى ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك إلا أن من قال بعدم جواز القياس يرى أنه ليس مصدرا تشريعيا بل هو مصدر تفسيرى يساعد على تعيين الأفعال التى تدخل تحت النص فاذا حرم النص صورة معينة لعلة ثم الحق القياس بها كل الصور

---

(١) المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن الكريم للمستشار الفقيه عبد الحليم الجندى ص ١٤١

(٢) المرجع السابق ص ١٤٢ أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ٤٢

المماثلة التى تتوافر فيها علة التحريم كالحاق اللواط بالزنا والمسكر بالخمر كما قالوا أن تقرير حد القاذف كان نتيجة الاجماع لا القياس[١] وقيل أن الاجتهاد واسع المجال فيما لا نص فيه وذلك فى المسائل المدنية والشخصية أما فى تقرير الجرائم والعقوبات فلابد فيها من نص لأن الاجتهاد فيها غير ممكن ذلك أن القاضى الجنائى ليس له أن يخالف النص الصريح مهما كانت الظروف ويراعى مبدأين شرعيين أولهما قول الرسول صلى الله عليه وسلم (أدرؤوا الحدود بالشبهات وثانيهما (أن الامام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة) أما الظاهريون فلا يرون أن الحد يحل درؤه بالشبهه[٢] .

خامساً : المصلحة : — قال إبن قيم الجوزية كل مسأله خرجت من العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله فى أرضه[٣] كما أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل رسله وأنبياؤه إلا لمصلحة العباد فى الدنيا والآخرة فالأديان جميعها ماهى إلا وسيلة لغاية كما قال تعالى فى كتابه الكريم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

شروط المصلحة عند الأصوليين :

لقد حمل الإمام مالك رضى الله عنه لواء الأخذ بالمصلحة المرسلة وقد وضع لها عدة شروط أولا أن تكون المصلحة ملائمة لمقاصد الشارع فلا تنافى ولا تعارض دليلا قطعيا ثانيا : أن تكون المصلحة معقوله أى يتقبلها أهل العقل والرأى ثالثا : أن يكون فى الأخذ بها رفع حرج لازم إذ يقول الله تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) رابعا : أن تكون المصلحة من المصالح العامة لا الخاصة أى تحقق المصلحة لا كبر عدد من الناس أو تدفع ضررا

---

(١) الاحكام فى أصول الاحكام جـ ٤ ص ٨٢

(٢) شرح فتح القدير جـ ٤ ص ١٣٩

(٣) أعلام الموقعين لابن قيم الجوزيه جـ ٣ ص ١٤

عنهم[١] وقد استدل أنصار المصلحة بالقرآن الكريم إذ قال تعالى (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم) ويقول القرطبى ولما كان الفقراء هم غالبية الناس والأغنياء هم الأقلية فى كل زمان ومكان فالمصلحة العامة هى مصلحة غالبية الناس قضت بهذا التوزيع المنصوص عليه فى هذه الآية حتى لايقتصر تداول المال بين الأغنياء دون الفقراء. أما الاستدلال فى السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم الناس شركاء فى ثلاثة الماء والكلأ والنار) وقال الماوردى لقد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وصعد جبلا بالبقيع وقال هذا حماى وأشار بيده إلى القاع قدرميل فى ستة أميال حماة لخيل المسلمين من الانصار والمهاجرين كما أن الرسول نهى عن قطع الأيدى فى الغزو أما الاستدلال بما فعل عمر إبن الخطاب فقد رفض رضى الله عنه تقسيم الأراضى المفتوحة على الفاتحين وقال قولته المشهورة التى تعتبر أساسا لنظام الضمان الاجتماعى فى الإسلام قد أشرك الله الذين يأتون بعدكم فى هذا الفىء[٢] كما اقتضت المصلحة عند عمر نزع ملكية أرض الحما من أصحابها دون تعويض وتخصيصها للفقراء المسلمين دون الأغنياء كما استرد أرضا أقطعها رسول الله بلالا كانت طويلة عريضة وترك لبلال ما قدر عليه عمارته من تلك الأرض واسترد ماعجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين كما أسقط حد قطع يد السارق فى عام المجاعة كما استشهد ابن قيم الجوزية فى كتابة أعلام الموقعين ص ١٤ إلى ص ٧٠ بأمثلة منها عندما علم الرسول بما فعل خالد ببنى جذيمة قال اللهم إنى ابرء إليك مما صنع خالد ولم يؤاخذه به لحسن بلائه ونصره للاسلام أما بالنسبة للوليد بن عقبة وأبى محجن فلم ينفذ فيهما الحد فى شرب الخمر بسبب الحرب حتى لايطمع العدو فى المسلمين وكى لاينضم الجانى

---

(١) أصول الفقه لاستاذنا الشيخ أبو زهرة ص ٢٦٧

(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٤ وكتاب الأموال لأبى عبيد ص ٥٦

إلى العدو هربا من العقوبة أما فيما يتعلق بتسعير السلع فإن الرسول لم يسعر إلا أنه فى عهد عمر أوجبت المصلحة التسعير منعا للغلاء الفاحش فى أسعار السلع .

سادسا : العرف : قال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسنا) ولما كان المجتمع الإسلامى يتطور ويتغير من وقت لآخر كذلك العرف وقد ساوى فقهاء الشريعة الإسلامية بين العادة والعرف من ناحيـــة القوة الملزمة إلا أن رجال القانون يعتبرون العادة أساس العرف وقال السرخسى كل عرف ورد النص بخلافة فهو غير معتبر[1] وقد اعتبرت القوانين الحديثة العرف من المصادر الاحتياطية للقانون لا يلجأ إليه إلا عند عـــدم وجود نص قانونى فالعرف فى الشريعة الإسلامية له نفس القوة المساوية للنص عند عدم وجود نص وقد نصت مجلة الأحكام العدلية فى المادة ٤٣ المعروف كالمشروط شرطا وفى المادة ٤٤ المعروف بين التجار كالمشروط بينهم وفى المادة ٤٥ التعيين بالعرف كالتعيين بالنص :

أسس العدالة الإسلامية

أولا : الضمير ثانيا : طرق الاثبات ثالثا : درء الحدود بالشبهات
رابعا : لاعقوبة ولاجريمة بغيرنص خامساً : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
سادساً : شخصية العقوبة

أولا : الضمير : ــ كأساس من أسس العدالة فى الإسلام هو صوت الله الحى الكامن فى الإنسان ويعرفه البعض بأنه هو كل نزعة خيرية كامنة فى الإنسان بالفطرة ذلك أن الإنسان بفطرته خلق خيرا وإذا غلبت عليه شهوات الحس انقلب شريرا لا يرى للضمير وجودا ولا يسمع له صوتا ولا يحس له أثرا بل ينقلب إلى عدو طاغى والى عبد أبق بمستنقع آسن من الشر غارق ومن نداء صوت الحق الداخلى مارق فيغدو فى ظلمة الرغبات لا يفصل بين الأباطيل والحقائق

---

(١) عبد الرحمن الصابونى محاضرات فى المدخل العام لعلم الفقه ص ١٢٠

وفى لجة الأطماع يستوى الحلال مع الحرام لا فاصل بينهما ولا فارق ويلى ذلك غروب شمس الحق دوما دون أن تعرف مشارق ويصـــير إنسان الأرض وحشا بل أدنى الخلائق أعمته عبادة الذات ولو ساق الضحايا إلى المشانق .

لقد خلق الإسلام فى المسلم ضميرا حيا لا يموت أبدا(١) إذ ربط المسلم بالله سبحانه وتعالى برباط دائم لانهاية له وصلة قريبة لامسافة فيها فقال تعالى [أقرب إليكم من حبل الوريد] [وهو معكم أينما كنتم] [أينما تولى فثم وجه الله] [فإنه يعلم السر واخفى] [لقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد] [يوم لا ينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم] كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] [نية المرء خير من عمله] [التقوى هاهنا] وأشار إلى صدره بذلك أصبح أساس الأعمال وركيزتها هو القلب والقلب هو ما يضمره الانسان فى نفسه من نية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وقد تخالف نية المرء عمله كمن يتصدق ليشبع فى نفسه لذة الرياء ومديح المحتاجين وثناء الضعفاء وقد تكون نيه المرء عمل الخير للناس جميعا وفى دنيا الواقع لاوجود للاعمال عندئذ يثاب المرء رغم أنفه حيث لا عمل لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال [نية المرء خير من عملة] فلولا تلك الصلة القوية بين الإنسان وربه الرقيب الحسيب الذى فى حسابه لا يهمل لحظة ولاينسى لفظه وفى رقابته لا يغفل عما يفعل الانسان إذقال سبحانه وتعالى [يعلم خائنه الأعين وماتخفى الصدور] [لا تأخذه سنه ولا نوم له مافى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء] فالله محيط بالعلم وكل الخلق محاسب على كل خاطرة فقال تعالى [ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه] وإذا ازدادت صلة الانسان بربه وجد الله حاضرا معه فى كل دقة من دقات قلبه وفى كل لحظة من لحظات فكرة وجد

---

[١] راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص ٤٧

الله قائما معه راعيا له حاضر الوجود لايغيب وجده حيث قال سبحانه وتعالى
(وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء ألا وفى)
(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ليت ذلك فحسب بل
إنه سريع الحساب يعطى المسىء بقدر إساءته ويعطى المحسن الحسنة بعشر أمثالها
وأكثر من ذلك وما من عبد عامل الله حق المعاملة إلا وجده كما قال (أنا جليس
من ذكرنى وحيثما التمسنى عبدى وجدنى) كذلك إنه سريع الحساب وأحكم
الحاكمين وأعدل العادلين فلا حكم أسرع من حكمة إذا ارتضى الشاكون حكمه
ولاعدل اعظم من عدله إذا استصرخ المظلوم بعدله لايؤجل قضاياه ولا يعرف
محاباه الكل سواء فى مساواه الامن رفعته تقواه لاعزيز لديه الامن والاه ولا
حبيب له الا من إرتضاه وجمله امله وحاكه ومناه ولاخليل له الا من للخير سواة
وهـــذا هو من ابصره ورآه ولديه فهمه ورعاه وفى القلب قـــدس اسم ربه
واحياه عندئذ يكون المسلم كما قال الله فى كتابه الكريم (من أتى الله بقلب سليم)
انه هو الضمير السليم الذى عامل الله ورآه بصفاته وافعاله عليم خبير ببواطن
القلوب وسريع الحساب لمن ارتضى من عباده وشديد الحساب لمن كسبوا
الاثم لانفسهم ونسوا ماذكروا به فكانوا عبرة لمن كان له قلب أوالقى السمع
وهو شهيد يرى المتأمل مصرع الظالمين الذين مشوا على الارض مرحا وإختيالا
وظنوا أنهم بلغوا الجبال طولا وأن الارض لن تمطلهم ولن يأكلهم دود ولن
تسير عليهم دواب الارض ولن يكونوا ترابا تذروه الرياح ولن يكونوا الا
ذكرى سيئة يتقرب إلى الله كل من كان لهم ولمن نافقهم لاعن ولظلمهم كاره
وعلى آثارهم باصق

وانا نخلص مماسبق إلى أن الضميرهو عمود الأعمال وذروه سنامها إذا صلح
صلحت الأعمال وإذا فسدفسدت ولم تجن من ذلك الدنيا كلها إلا أسوء النتائج
وأبشع العواقب وافظع المحن التى تميد بالافراد والجماعات وتحط الانسانية إلى
اسفل سافلين من دركات الضعة والبوار حيث لايبقى من الإنسانية الا أسمها
ومبناها بعد أن يضيع جوهرها ويبعد مغزاها ويهوى املها ويزول مرماها فاذا

تكسب الدنيا بالانسان تقدم فكره بما اخترع من ماديات قد سار فوق القمر وفقد من داخله الضمير ذلك الصوت الإلهى الخير الذى يسمعه البسطاء فيرون نور الحق فيتبعوه وظلمة الباطل فيجتنبوه يجدون الخير فيفعلونه والشر فيحرمونه دينهم الايثار ولا تعرف الأثرة لأنفسهم سبيلا ويقول البروفسور سوروكين « إنا نحيا أفظع الأزمات التى عرفها التاريخ إذ لسنا نواجه الجوع والحرب والثورات فحسب لكننا نواجه حشدا هائلا من النكبات المروعة يزحف على عالمنا برمته فالقيم مزعزعه والمقاييس محطمة وكأن الانسانية نفسها أصبحت مشوهة الصورة » ويقول دكتور بلى جراهام « إن الأزمة تشغل كل مكان فى العالم وتحيط بثقافتنا ومجتمعنا من كل جانب فهى تتجلى فى الفنون الجميلة والعلوم والفلسفة والدين والأخلاق والقانون اننا مازلنا فريسة الشعور بالفراغ ان حضارتنا تسير بسرعة هائلة مقتربة من نهايتها ويجب أن نبادر إلى العثور على منفذ إلى النور وطريق يؤدى إلى الصحة الروحية فالعالم يعيش فى فوضى مدمرة وفق خطة رسمها الشيطان المضل الذى يفرق بين الانسان ونفسه والانسان وأخيه الانسان .

أليس الضمير هو الرقيب السماوى لفكر الانسان أليس هو المنبه والحسيب الذى يحمل سيفا بتارا يهدد حياة الانسان إذا حاد عنه ومرق منه وكم من بشر يستعذبون الموت مرضاة للضمير وفاضت أعينهم بالدمع عند يقظته واعترفوا بما أجرموا ليقيموا صلحا داخليا تنتظم به حياتهم وتستقيم به جوارحهم وتلتئم به ذواتهم فلا يأس ولا قنوط ولا شرود ولا انتحار أليس كل ما تعانيه البشرية من شقاء داخلى وعذاب نفسى هو وليد الجموح الصارخ والمروق البين من سلطان الضمير أليست كل المظالم التى يصرخ من ويلاتها الأفراد والأسر والجماعات والدول وليدة وأد الضمير حتى لا يسمع له صوت ولا يرى له فى حياة البشر وجود أليست جرائم القتل التى تقع بين الأفراد والعائلات والقرى والدول بقصد تخريب الديار وتنكيس العمار وشيوع البوار وإزهاق أرواح الأبرار قبل الأشرار والصغار قبل الكبار إلا كفرانا بالضمير وحربا عليه

وعملا يفصل بين الانسان وبين ذاته القدسي الأصيل ويدغه في مصاف العجماوات.

إذن كيف للعدالة أن تتحقق وترفرف بجناحيها في سماء المجتمع وتحيط كل إنسان بكرامة آدميته التي قال عنها الله (ولقد كرمنا بني آدم) وقيمة إنسانيته التي قال عنها الله (ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) وحرمة نفسه التي قال عنها الله (ونفس وما سواها) وحرمة ماله . إذن كيف للحق أن يسود ويعلو ويصبح اسما في القلوب به الكل يذكر ويزهو وفي حرم ساحته من لجأ إليه ينجو وله الكل مقدس ويسير ويحبو وبه الآمن يغشى النفوس وبفضله تتساوى الرؤوس ويضحى الحق الكيان المجسد الملموس والوجود المرئي المحسوس إذا اختفى الضمير واحتجب وأسدلت عليه ستائر الظلمة وغرب وببطن الغيب هرب وبقلب الجاهيل أنسحب وظهر البعض من الناس يتاجرون بأرواح الناس سعادتهم من شقائهم وراحتهم من آلامهم وغناهم من فقرهم وقوتهم من ضعفهم وصحتهم من أمراضهم عندئذ يجب القول لا عدالة على الأرض ولا حق في الوجود ولا إنسان على الدنيا إذا فقد الضمير كرسي عرشه من مملكة الانسان وبات منسيا هو والعدم على حد السواء وهنا يجدر لي أن أقول يزع الله بالضمير الكامل بأعماق النفس الانسانية أكثر مما يزع بأقوى سلاطين الأرض وأشرسها سلاحا لأن قوة الضمير في التغيير والاصلاح لا يعادلها في الأرض أقوى سلاح ذلك لأن كل إصلاح أساسه بطش السلطان سريع الزوال كالزبد يذهب جفاء أما الاصلاح الذي ارتكز على الحب ونبع من الضمير فهو الذي يبقى ويفنى من أجله الانسان وقد تأيد ذلك بقوله تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

ثانيـــا : طرق الاثبات

أولا : الشهادة لقد عنى الاسلام بتربية الضمير ذلك لأنه الدعامة الأولى التى يقوم عليها مجتمع إنسانى متماسك تتصل فيه الأرض بالسماء والفناء بالخلود وبه يثبت النظام ويسود الأمن ويعبد الله على أرضه ويقام فى نفوس عبادة حكم شريعته . ذلك لأن الضمير هو حارس على الشريعة ينفذها ويرعاها إذا اعتد الاسلام بالشهادة لجعلها أساس إقامة الحدود فى أحوال كثيرة وفى إثبات الحقوق كذلك والشهادة فى خطورتها مردها إلى الضمير الذى رباه الاسلام [1] إذا انعدم الضمير ضاعت أموال الناس وأهدرت أنفس وأريقت دماء وقطعت أطراف وأبيحت محرمات وانحطت كرامات لأن أحكاما أدلتها الشهادة فى صدقها تقوم العدالة وفى كذبها يعم الظلم أرجاء المجتمع فيتفسخ وينهار ويدمر بعضه بعضا فتضل الشريعة طريقها وتضحى سيفا فى يد الظالم مسلطا على قلب المظلومين أو كما قال الامام على عليه السلام « دعوة حق أريد بها باطل » والأصل فى الشهادة الكتاب الكريم إذ قال تعالى (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) - (واشهدوا ذوى عدل) - (واشهدوا إذا تبايعتم) والشهادة واجب وتكليف كما قال تعالى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) - (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) - (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) وفى السنة فقد روى وائل بن حجر قال جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبى ﷺ فقال الحضرمى يارسول الله هذا غلبنى على أرض لى فقال الكندى هى أرضى وفى يدى فليس له فيها حق فقال النبى ﷺ للحضرمى ألك بينه ؟ قال لا قال فلك يمينه [2]

---

(١) راجع فلسفة التدين الصوفى للمؤلف ص ٤٠ .

(٢) المغنى جـ ١٢ ص ٢ .

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن بن محيصة الأصغر أصبح قتيلا على
باب خيبر فقال رسول الله ﷺ « أقم شاهدين على من قتله أدفعه إليكم برمته »
قال الرسول « البينة على من إدعى واليمين على من أنكر » ويفرق الفقهاء فى
إثبات القتل والجراح بين الجرائم التى توجب عقوبة بدنية وبين الجرائم التى
توجب عقوبة مالية كالدية والغرامة .

أما فى الجرائم التى توجب عقوبة بدنية : إما أن تكون موجبة القصاص على
عقوبة تعزيرية .

وفى جرائم القصاص يشترط جمهور الفقهاء فى إثباتها أن يشهد الجريمة رجلان
عدلان إلا أن الشوكانى يرى إثبات الجريمة بما تثبت به الأموال فيكفى شهادة
رجل وامرأتين ويرى بعض الفقهاء فى مذهب مالك جواز شهادة امرأتين ويمين
المدعى فى جراح العمد ولا يرى نصابا معينا فى الشهود فيكفى عنده لإثبات
الجريمة الموجبة للقصاص أن يشهد بها شاهد واحد إذا رجح القاضى
صدق شهادته .

فى الجرائم التى توجب تعزيرا بدنيا : الأصل عند مالك أن العقوبات البدنية
لا تكون إلا بشهادة رجلين أما فى الجرائم الموجبة للقصاص فيما دون النفس
جاز أن تثبت بشهادة رجل ويمين المجنى عليه أما أبى حنيفة يرى أن العقوبات
البدنية لا تثبت بأقل من شاهدين عدلين ولكن فى التعزير يجيزون أن يكون
أحد الشاهدين هو المجنى عليه .

أما فى الجرائم التى توجب عقوبة مالية كالدية والغرامة : فانها تثبت بشهادة
رجلين أو رجل وامرأتين أو رجل واحد ويمين المدعى وكل ما شرع فيه اليمين
فالشهادة تثبت بشهادة الشاهد ونكول المدعى عليه ويرى الحنفية التساهل فى
إثبات الجرائم الموجبة لعقوبة تعزيرية ذلك لأن تلك العقوبات هى الأكثر تطبيقا
حرصا على مصلحة الجماعة وصيانة لنظامها .

ويجيز الفقهاء شهادة رجل واحد أو امرأة واحده للضرورة سواء كانت

الجريمة مما يوجب عقوبة بدنية كالقصاص أو عقوبة مالية كدية كما أنه لا تثبت الجريمة بالشهادة إلا مع زوال الشبهة وانتفاء الشك فإذا لم تكن كذلك بطلت الشهادة فمن شهد بأن جماعة يضربون شخصا حدثت به عاهة ولم يشاهد محدث العاهة فلا تثبت العاهة ضد أحدهم بل يثبت الضرب عليهم لأنه القدر المتيقن أي المقطوع به في أقوال الشهود .

الشروط العامة للشهادة

١ — يجب أن يكون الشاهد بالغا وذلك بقوله تعالى (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) والصبي ليس من الرجال بقول الرسول ﷺ « رفع القلم عن ثلاثة الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق » إلا أن الامام مالك أجاز شهادة الصبيان بعضهم على بعض — بشرط أن يكون الشاهد مميزا ولا يحضر الحادث كبير وذلك للضرورة [١] ويرى الامام أحمد قبول شهادة الصبيان في الجراح قبل الافتراق عن حالتهم لاحتمال تلقينهم .

٢ — العقل : لا تقبل الشهادة إلا من عاقل أو مجنون في حالة إفاقته ويشترط أن يفهم الشاهد ما وقع بصره عليه وألا يكون غالبا على الشاهد كثرة النسيان والغلط وبعض الفقهاء يرد شهادة المغفل قائلا أنه شر من الفاسق في الشهادة .

٣ — الكلام : يشترط في الشاهد القدرة على الكلام وإن كان أخرس فمالك يقبل شهادته إذا عرفت إشارته وأحمد لا يقبلها إلا إذا كان يستطيع الكتابة فأدى الشهادة بخطه وأبو حنيفة يرفض شهادة الأخرس على إطلاقها .

٤ — الرؤية يشترط في الشاهد أن يرى ما يشهد به فإن كان أعمى فالبعض لا يقبلون شهادته لأنه لا يميز إلا بالنغمة وفي تمييزه شبهة وأبو يوسف يجيز شهادة الأعمى فيما طريقه السماع مطلقا والمالكيون يقبلون شهادته في الأقوال ما دام فطنا لا تشتبه عليه الأصوات والشافعيون يجيزون شهادته في النسب والموت

---

(١) مذاهب الجليل جـ٦ ص ١٧٧ .

بعض فقهاء المذهب يجيزون قبول شهادته مطلقا فى الأقوال إذا عرف الصوت كذلك فى مذهب أحمد أما الظاهريون فيقبلون شهادة الأعمى مطلقا فى الأقوال الأفعال وحجتهم فى ذلك أن الله أمر بقبول البينة ولم يشترط أعمى من مبصر .

٥ ــ العدالة يشترط فى الشاهد أن يكون عدلا عملا بقوله تعالى (واشهدوا وى عدل منكم) ـ (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) فأمر الله بقبول شهادة العدل بالتوقف فى نبأ الفاسق وقد قال ﷺ لا تجوز شهادة خائن ولا خائنه ولا ذى ر على أخيه ولا تجوز شهادة القانع لأهل البيت) القانع أى التابع وفى رواية خرى ، لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا زان ولا زانية ولا ذى غمر على خيه ، ذى الحقد والأحنة والبعض يفسر الخيانة فتشمل جميع ما افترض الله عالى على العباد القيام به واجتنابه كبيراً و صغيرا ويرى المالكية أن العدالة هى نب الكبائر وتوقى الصغائر وأداء الأمانة وحسن المعاملة أما الحنفيون يرون العدالة ى رجحان جانب الدين والعقل على الهوى والشهوة والعادل هو من يغلب عليه صلاح وتظهر مروءته (١) أما الشافعية يرون العدالة هى تجنب الكبائر وعدم لاصرار على الصغائر ومن تجنب الكبائر وندر ارتكابه للصغائر فهو العادل ما من أجاز الاكثار من الصغائر أجاز لنفسه شهادة الزور إذ الحكم معلق على غالب من أفعاله أما الحنابلة يرون العدالة هى استواء أحوال الشخص فى دينه اعتدال أقواله وأفعاله وأداء الفرائض وتجنب الكبائر وعدم الادمان على الصغائر واستعمال المروءة وهى عند الشافعية الانسانية لأن من ترك لانسانية لم يؤمن أن يشهد الزور فمن لا يستحى من الناس يفعل ما يشاء عملا بقول الرسول ﷺ (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) أما العادل عند لظاهريين هو من لا تعرف له كبيرة ولا مجاهرة بصغيرة ولتحقق العدالة يكتفى الطاعة وتجنب المعصية كما رأى الحنفيون والظاهريون وان العدالة تفترض فى شاهد حتى يثبت جرحه أى إذا لم يجرح المشهود عليه الشاهد قبلت الشهادة دون

---

(١) حاشية بن عابدين جزء ٤ ص ٢٢٥ .

أن يكون على القاضى أن يتحرى عن عدالة الشاهد وحجة أبى حنيفة قول الرسول ﷺ « الناس عدول بعضهم على بعض إلا محدودا فى قذف » وما جاء فى كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أبى موسى والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور أو مجلودا فى حد أو ظنينا فى ولاء أو قرابة إلا أن بعض الفقهاء يرى ضرورة تحرى القاضى عدالة الشاهد ليقبل شهادته (١) .

٦ — الاسلام يسلم جميع الفقهاء بشرط الاسلام فلا تقبل شهادة غير المسلم سواء كانت الشهادة على مسلم أو غير مسلم وقد رأى الحنفية جواز شهادة الذميين على بعضهم لأنهم من أهل الولاية على أنفسهم وأن ابن تيمية وتلميذه بن القيم يريان قبول شهادة غير المسلمين بعضهم على بعض تحقيقا للمصلحة العامة كما أجاز البعض شهادة غير المسلم على المسلم فى الوصية حال السفر وكذلك عند الضرورة .

مالا تجوز شهادتهم : قال ﷺ « لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا زان ولا زانية ولا ذى غمر على أخيه) أى حقد « لا تجوز شهادة ذى الظنه ولا ذى الحنة » الظنة أى التهمة وهو أن يكون بين الشاهد والمشهود له ما يبعث على الظن بمحاباة الشاهد المشهود له بشهادته أو أن يكون للشاهد مصلحة تعود عليه من أداء الشهادة وذى الحنة أى العداوة أما الظاهريون يرون قبول الشهادة ما دام الشاهد عدلا :

ثانيا : الاقرار

وهو الاثبات باعتراف صريح وواضح ولا غموض فيه والأصل فيه الكتاب الكريم إذ قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) وفسرت شهادة المرء على نفسه بالاقرار « وليملل الذى عليه الحق إلى قوله فليملل وليه بالعدل أى فليقر بالحق وقوله « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » « ألست بربكم قالوا بلى كذلك ورد فى السنة ان ما عز أقر بالزنى فرجمه الرسول

(١) مذاهب الجليل جـ ٦ ص ١٥٠ .

ﷺ وكذلك الغامدية وفى قضية العسيف قال الرسول ، أغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، وأما الاجماع فقد أجمعت الأمة على صحة الاقرار لأن العاقل لا يكذب على نفسه كما أن الاقرار حجة على المقر يوجب عليه القصاص والحد والتعزير والحقوق المالية ولا أثر للاقرار على غير المقر وقد اشترط فى الاقرار المثبت فى الجناية أن يكون مبينا مفصلا قاطعا فى ارتكاب الجانى الجناية وظروفه وسببها وقد يكون الاقرار بارتكاب جناية وقعت إستعمالا لحق أو أداء لواجب .

والأصل فى تفصيل القرآن هو سنة الرسول ﷺ إذ جاءه ماعز يعترف بالزنا ويكرر اعترافه فسأل ﷺ هل به جنون أو هو شارب خمر وأمر من يشم رائحته وجعل يستفسر عن الزنى حتى اعترف ماعز اعترافا مفسرا صريحا وقال الرسول له فما تريد بهذا القول ؟ قال تطهرنى فأمر به فرجم فدل ذلك على وجود الاستفصال والتبيين فى الاقرار [١] .

وقد اشترط فى الاقرار : أن يكون صادرا من عاقل فاذا فقد المقر عقله لأى سبب من الأسباب فإن إقراره لا يعتبر صحيحا ولا يؤخذ به ولكن إذا أعاد المقر إقرارة بعد زوال الجنون فإنه يؤاخذ باقراره الجديد لأنه صدر صحيحا إلا أن الشافعى يرى أن من شرب مزيلا للعقل عالما أنه مسكر بغير حاجة يؤخذ بإقراره لأنه شرب ما يعلم أنه يزيل عقله يوجب أن يتحمل نتيجة علمه تغليظا عليه لينزجر أما شارب المسكر محتاجا فإنه لا يؤخذ بإقراره إلا إذا زالت حالة سكره .

كذلك اشترط أن يكون الاقرار صادرا عن إرادة حرة فاقرار المكره لا قيمة له والاكراه فى الشريعة نوعين إكراه تام ملجىء ويخاف فيه تلف النفس وهو يعدم الرضا ويفسد الاختيار وإكراه ناقص يعدم الرضا ولا يفسد الاختيار ولا يخاف فيه تلف النفس وهو إكراه غير ملجىء كالضرب والحبس والقيد

---

(١) سبل السلام جـ ٤ ص ٧ .

فالاكراه التام يؤثر على الجرائم أما الاكراه الناقص لا أثر له إلا على التصرفات التى تحتاج إلى الرضا كالبيع والاجارة والاقرار وما أشبه إلا أن بعض الحنابلة يرون أن الإكراه لا بد أن يكون ماديا استنادا إلى قول عمر رضى الله عنه ليس الرجل أمينا على نفسه إذا اجعته أو ضربته أو أوثقته إلا أن مالك وأبو حنيفة والشافعى وبعض الحنابلة يرون أن الإكراه لا يكون غالبا إلا بالوعيد والتعذيب وبالقتل أو بالضرب .

شروط الاكراه الذى يعدم الرضا :

١ ــ أن يكون الوعيد بما يضر المقر ضررا ماديا فى جسمه أو ماله أو فى استعمال حقوقه إلا أن أبا حنيفة يرى الوعيد باتلاف المال ليس إكراها لأن محل الاكراه الأشخاص لا الأموال لكن بعض فقهاء الحنفية يرون الوعيد باتلاف المال إكراها إلا أنه يجب أن يكون الوعيد بعمل غير مشروع فإن كان العمل المهدد به مشروعا فلا وعيد .

٢ ــ أن يكون الوعيد بعمل حال أما إذا كان غير حال فليس ثمة إكراه إذ المكره لديه من الوقت ما يكفيه ليلجأ إلى السلطة العامة أو يهرب من المكره إلا أنه يعد الوعيد حالا إذا عجز المكره عن الهرب والاستغاثة بالآخرين أما الوعيد المؤجل فلا يعد إكراها إلا أن بعض فقهاء الشافعية يجعله إكراها إذا غلب على ظن المقر إيقاع المهدد ذلك الوعيد كذلك يشترط قدرة المكره على تحقيق وعيده .

٣ ــ أن يعتقد المكره أن الوعيد يتحقق إذا لم يجب إلى مادعى إليه اعتقادا مبنيا على أسباب معقولة [1] وإذا توافرت تلك الشروط الثلاثة فإن الاكراه يكون باطلا ولا يعمل به لقوله تعالى « إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » ولقول الرسول ﷺ « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

---

(١) حاشية ابن عابدين جـ ٥ ص ١٠٩ .

ويؤثر عن شريح أنه قال القيد كره والسجن كره والوعيد والضرب كره وإذا أقر المكره بجريمة لم يكره عليها أو أقر بعد إخلاء سبيله وهو حر مختار أخذ بالاقرار الذى صدر عنه ودعوى الاكراه لا تقبل بغير قرينة تؤيدها لأن الأصل عدم الاكراه وإذا أكره حاكم أو قاضى متهما ليقر بجريمة عقوبتها القتل أو القطع كالقتل والسرقة فأقربها وقتل أو قطعت يده اقتص ممن أكرهه (١) .

العدول عن الاكراه : للمقر أن يرجع عن إقراره فيما كان حقا لله تعالى يدرء بالشبهات أما حقوق العباد وحقوق الله تعالى التى لا تدرء بالشبهات كالزكاة والكفارات فلا يقبل عدول المقر عن إقراره فإذا أقر شخص بالزنا ثم عدل عن إقراره لم يؤخذ باقراره لأن الزنا متعلق بحقوق الله تعالى التى تدرء بالشبهات أما إذا كان الاقرار بقتل أو إسقاط جنين أو جرح فإن المقر يؤاخذ باقراره الصحيح ولو عدل عنه إلا أنه إذا أثبت أن الاقرار مكذوب فلا يؤاخذ المقر باقراره سواء عدل عنه أو لم يعدل تعلق بحق الله تعالى أو حق العباد وإذا ثبتت الجريمة بغير الاقرار فلا أثر للعدول .

ثالثا : القرائن

لقد بنى الكثير من أحكام الشريعة الاسلامية على أساس القرائن من ذلك القسامة وتقوم على أساس القرينة سواء وجد لوث أم لم يوجد فرؤية شخص على مقربة من الجثة ملوث بالدماء وهذا اللوث قرينة على أن هذا الشخص هو القاتل وكذلك النكول عند من يرى أن النكول يؤدى إلى إثبات الجريمة فذلك الثبوت أساسه القرينة وكذلك إثبات الزنا بالحمل فإن الحمل قرينة على الوطء المحرم المعتبر زنا وكذلك انبعاث رائحة الخمر من فم المتهم يعد قرينة تفيد ثبوت جريمة شرب الخمر كذلك ثبوت السرقة على من يوجد فى حيازته المال المسروق .

وقد اعتمدت المذاهب الاسلامية على القرائن فى استنباط الأحكام الفرعية

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .

كما أن كثيرا من الأحكام الاساسية أقامتها الشريعة على أساس القرائن كقول الرسول ﷺ « الولد للفراش » فإن قيام الزوجية جعل دليلا على أن من تلده المرأة يكون ابنا للزوج وقد أخذ الكثير من الخلفاء والولاة والقضاء بالقرائن فى اعتبارها دليلا لإثبات الدعاوى الجنائية والمدنية إلا أن جمهور الفقهاء لا يأخذ بالقرائن كدليل من أدلة الاثبات وحجتهم فى ذلك أن القرائن فى أغلب الأحيان غير قاطعة وتحمل أكثر من وجه وإذا اعتمد عليها فقد اعتمد على دليل مشكوك فيه إلا أن القليل من الفقهاء من يرى الأخذ بالقرائن فى إثبات الجرائم مع الاعتدال ومنهم ابن القيم الذى يرى أن الحاكم إذا أهمل الحكم بالقرائن أضاع حقا كثيرا وأقام باطلا كبيرا وإن توسع وعول عليها دون إتباع الأوضاع الشرعية وقع فى أنواع من الظلم والفساد [1] .

ثالثا : درء الحدود بالشبهات

العدالة الاسلامية قوامها الجزم واليقين لا الظن والتخمين لأنها تعتمد على قول الله فى كتابه الكريم (إن الظن لا يغنى عن الحق شيئا) — (إن بعض الظن إثم) ويقول الرسول ﷺ « إياكم والظن فإن أكذب الحديث » وعدالة الاسلام أبعد ما تكون عن موارد الشبهات إذ الحلال بين والحرام بين وما بينهما أمور مشتبهات كما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « أدرؤوا الحدود بالشبهات عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » كما روى حديث آخر (ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا) — « ادرؤوا الحدود بالشبهات » وقد حرص الاسلام على أن تكون أحكام القضاء عدلا مطلقا لا تخالطه ريبه باطل ولا شبهة ظلم فقال الرسول ﷺ « من ابتلى بالقضاء بين الناس فليعدل بينهم » وقصد من ذلك تربية القضاة الذين ابتلوا وفتنوا بالقضاء بين الناس

---

(١) الطرق الحكمية ص ٣

على أساس الخوف من الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالقاضي يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط » « والقضاة ثلاثة اثنان منهم فى النار وواحد فى الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ورجل قضى بين الناس بالجهل فهو فى النار ورجل عرف الحق فجار فهو فى النار » — « ان أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل وان أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر » « ويل العرفاء وويل للأمراء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا » وقال سحنون إنا لله ما أشقى المفتى والحاكم ها أنذا يتعلم منى ما تضرب به الرقاب وتؤخذ به الحقوق أما كنت عن هذا غنيا ويقول أبو عثمان الحداد المفتى أقرب إلى السلامة من القاضى لأنه لا يلزم بفتواه وإنما يخبر بها من استفتاه فإن شاء قبله وإن شاء تركه وأما القاضى فإنه يلزم بقوله فيشترك هو والمفتى فى الاخبار عن الحكم ويتميز القاضى بالإلزام والقضاء من هذه الوجهة خطره أشد . والبعد عن الشبهات قصد منه البعد عن كل ما شابه الحق وليس بحق حتى تكون أحكام القضاء مؤسسة على الأدلة القاطعة والخالصة من كل غبش الشكوك وصافية من كل ريب وظنون فيظهر بذلك نور الحق شاهدا على ميلاد عدالة مطلقة يقرها العقل ويقبلها الضمير .

الشبهة عند الحنفية [1] : هى شبهة فى الفعل وهى شبه فى حق من اشتبه عليه الفعل دون من لم يشتبه عليه وتثبت فى حق من اشتبه عليه الحل والحرمة ويشترط لقيام الشبهة فى الفعل ألا يكون هناك دليل على التحريم أصلا وأن يعتقد الجانى الحل فإذا كان يعلم بحرمة الفعل فلا شبهة أصلا ثم شبه المحل وهى شبه الملك وهى تقوم على الاشتباه فى حكم الشرع فى المحل ويتحقق بقيام دليل شرعى ينفى الحرمة كذلك شبهة العقد وشبه الخطأ والنسيان والاكراه عملا بقول الرسول ﷺ

(١) أسنى الطالب جـ ٤ ص ١٢٧ والمغنى جـ ١٠ ص ١٥٤ .

« عفى لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » كما قال تعالى (وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) وقد حكى أن امرأة استكرهت فى عهد الرسول فدرء عنها الحد وذلك ما قضى به الامام على بن أبى طالب فى امرأة استكرهها راعى فزنا بها . كذلك اختلاف الفقهاء فى صحه الأنكحة يعتبر شبه فى الوطء والحدود تدرء بالشبهات أما الظاهريون يرون الحد فى كل نكاح باطل ولقد أسبق مبدأ درء الحدود بالشبهات جميع تشريعات العالم التى نادى منها القانون الانجليزى فى العصر الحديث أن براءة مائة متهم خير من إدانة برىء لأن العدالة كم تنهار وتضحى ظلما صارخا عندما يخطىء القاضى فى العقاب لا عندما يخطىء فى العفو وفى القانون المصرى (١) قاعدة أن الشك يفسر لمصلحة المتهم ما يقابل القاعدة الشرعية إدؤوا الحدود بالشبهات وتفضيل الخطأ فى العفو فإذا ساورت الشكوك عقيدة المحكمة ثبوت التهمة أو فى توافر أحد أركانها قضى بالبراءة .

رابعا : لا عقوبة ولا جريمة بغير نص

الأصل فى الشريعة أن كل الأفعال والمتروكات مباحة مالم يرد نص بتحريمها فلا مسئولية على الفاعل أو التارك كما أن الأفعال المحرمة لا تعتبر مجرمة فى الشريعة بتحريمها وإنما بتقرير عقوبة لها سواء كانت العقوبة حدا أو تعزيرا أى لا جريمة ولا عقوبة بغير نص كما أن هناك قاعدة أصولية تقضى بأنه لا يكلف شرعا إلا من كان قادرا على فهم دليل التكليف أهلا لما كلف به ولا يكلف شرعا إلا بفعل ممكن مقدور للمكلف معلوم له علما يحمله على امتثاله (٢) فيشترط فى المكلف أن يكون قادرا على فهم دليل التكليف أهلا للمسئولية والعقوبة ويشترط فى الفعل المكلف به أن يكون ممكنا وفى قدرة المكلف اتيانه أو تركه ومعلوما

---

(١) القانون الجنائى لعلى بدوى ص ١٠٦ شرح قانون العقوبات محمد كامل مرسى واخر ص ١١٤ .

(٢) أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ١٧٣ .

علما تاما يحمل على الامتثال والعلم بالأحكام لا يتم إلا إذا نشر نصها على الكافة إذ من لم يعلم بأمر أو نهى لا يمكن أن يأتمر به أو ينتهى عنه ومعنى ذلك لا جريمة بلا نص ينشر للناس ويجب أن يكون فى الحكم ما يحمل المكلف على الامتثال ويكفه عن العصيان وذلك يقتضى علم المكلف بأنه سيعاقب على عدم الطاعة إذ النص على الجريمة يقتضى النص على العقوبة .

ألحاق قاعدة لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص : نص المشرع فى القرآن الكريم

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) — « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا » — (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

(لأنذركم به ومن بلغ) (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) .

القاعدة فى جرائم الحدود : وهى سبع الزنا والسرقة والقذف والشرب والحرابة والبغى والردة وقد عينت الشريعة عقوبات لتلك الجرائم تعيينا دقيقا فلم يترك للقاضى حرية نوع العقوبة وتقدير كميتها وليس لظروف الجريمة أو المجرم أى أثر فى العقوبة وليس للقاضى أن يوقف تنفيذها وليس للسلطة التنفيذية حق العفو عن العقوبة لأنها حقا لله سبحانه وتعالى .

أما فى جرائم القصاص والدية : فقد طبقت القاعدة تطبيقا دقيقا وعقوبة القصاص والديه من العقوبات المقدرة المحددة النوع وللمجنى عليه أو وليه حق العفو أما ولى الأمر فليس له أن يسقط عقوبة القصاص أو الدية أو يعفو عن أحدهما .

أما فى جرائم التعازير :

التعزير هو تأديب على ذنب لم تشرع فيه عقوبة أو جرائم لم تضع الشريعة لها عقوبات بصفة محدده وهو تأديب وإصلاح وزجر يختلف باختلاف الذنب ولولى الأمر حق العفو عن العقوبة كلها أو بعضها .

التعزير على المعاصي : وهى ما طلب من المكلف ترك فعله حتما مثل قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) والمعاصى ما فيه الحد مثل جرائم الحدود السبع وجرائم القصاص والدية وهى خمس وما فيه الكفارة والحد كالوطء فى نهار رمضان وفى الإحرام ونوع لا حد فيه ولا كفارة كالشروع فى الزنا والشروع فى السرقة والسرقة من غير حرز وسرقة مادون النصاب ونوع فيه حد درء لشبهه ونوع ليس فيه حد مثل أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وخيانة الأمانة والغش وشهادة الزور والرشوة وأكل الربا ونوع فيه كفارة ولا حد عليها . مثل افساد الصيام والاحرام والحنث فى اليمين والوطء فى ظهار وخلاصة ما قيل فى التعزير أنه يكون على كل معصية لا حد فيها ولا كفارة على حسب مايراه السلطان وما يقتضيه حال الشخص لتأديبه [١] .

ولقد سبقت الشريعة الاسلامية قوانين العالم التى لم تعرف تلك القاعدة إلا فى القرن الثامن عشر إذ كان القاضى يعاقب المتهم دون نص يحرم الفعل الذى ارتكز عليه الاتهام [٢] بذلك يبين أن العدالة الاسلامية أقيمت على قاعدة النص التشريعى الذى جعل لكل فعل محرم عقوبة .

---

(١) الزيلعى جـ ٣ص ٢٠٨ مواهب الجليل جـ ٨ ص٣١٩ .

(٢) الموسوعة الجنائية جـ ٥ ص ٥٥٢ .

خامسا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إن العدالة فى المجتمع الاسلامى تقوم على أساس الدعوة للمعروف والنهى عن المنكر ذلك لأن ميزان القيم فى الاسلام هو الذى توزن به كل الأفعال والأقوال فما كان معروفا أمر به وما كان منكراً نهى عنه والعدل هو الحال التى يرضى عنها ميزان القيم والخط الفاصل بين الحق والباطل ، والضوء الذى يكشف الحلال والحرام ويبين به وجه المعروف فيحب ووجه المنكر فيبغض إذ لا يمكن أن يقوم العدل فى مجتمع جهل المعروف والمنكر أو نشأ نشأة رأى فيها المنكر معروفا والمعروف منكرا والسنه بدعة والبدعة سنه أو إصابة العماء أو وضع على بصره غشاوة فأصبح النور والظلمة على حد السواء وكى يكون لعدل الله وجود فإنه يجب أن يماط اللثام كى تبصر الأبصار فحوى المعروف وكنه المنكر فيرسخ فى النفوس حب المعروف والأمر به وكراهية المنكر والنهى عنه حتى لا يقع الناس فى حمأة الظلم ضحايا جهالتهم ظانين أنهم يحسنون صنعاً وأنهم صالحون مصلحون رغم أنهم هم الفاسدون المفسدون .

أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

قال تعالى فى كتابه الكريم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) — (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون) (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » — « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما .

كذلك قال رسول الله ﷺ فى خطبة خطبها « أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وقال الرسول ﷺ « مامن قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

وروى عن أبى ثعلبة الخشعمى أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فقال ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام » .

قال الرسول « لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » — « ما البر عند الجهاد فى سبيل الله إلا كنفثه فى بحر لجى وما جميع أعمال البر والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثه فى بحر لجى » وقال ﷺ .

« إياكم والجلوس فى الطرقات » قالوا ما لنا بد إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال « فإذا أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقها » قالوا وما حق الطريق قال « غض البصر وكف الأذى ورد السـلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وقال أبو عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله أى الشهداء أكرم على الله عز وجل قال (رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجرى عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش .

وقال الحسن البصرى قال رسول الله ﷺ « أفضل شهداء أمتى رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته فى الجنة بين حمزة وجعفر » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « بئس القوم قوم

لا يأمرون بالقسط فبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » وروى أبو سعيد الخدرى أن الرسول قال « من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

وقد عرف بعض الفقهاء المنكر بكل محذور الوقوع فى الشرع (١) والمعروف كل قول أو فعل ينبغى عمله طبقا لنصوص الشريعة والمنكر كذلك كل ما يجب تركه قولا أو فعلا طبقا للشريعة وقد اتفق الفقهاء أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأفراد ليس لهم أن يتخلوا عن أدائه وفرض لا محيص لهم من القيام بأعبائه كى تقوم الجماعة على الخير والفضيلة وتقل المعاصى والجرائم ويقضى على الظلم والفساد والمنكر ويرى البعض أن هذا الواجب فرض عين حفاظا للأمة وحرزا لها من التحلل والفساد (٢) عملا بقوله تعالى (كنتم خير أمـــة أخرجت للنـاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

وقال بعض الفقهاء ان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يسقط إذا علم الآمر أو الناهى أن أمره أو نهيه لن ينفع وعلى الآمر أن ينكر المعصية بقلبه ويقاطع فاعلها ولا يحضر مواضع المعاصى والمناكر أما إذا علم أن النهى عن المنكر سيؤدى إلى منكر آخر هو أشر منه سقط عنه الواجب بل حرم عليه النهى ومثل ذلك ما حدث لإبن تيمية فقد مر ببعض أصحابه فى زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم أصحاب بن تيمية شرب الخمر ولكن بن تيمية أنكر على أصحابه قولهم وقال إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن الذكر وعن قتل النفوس وسبى الذرارى وأخذ الأموال فدعوهم وخمرهم (٣) إلا أن البعض يرى أن من كان أمره أو نهيه لا يفيد ولكنه لم يخف مكروها فانه يستحب له الأمر

---

(١) أحياء علوم الدين المجلد الثانى جـ ٧ ص ٣١

(٢) تفسير المنار جـ ٤ ص ٣٤ أحكام القران للجصاص جـ ٢ ص ٢٩ .

(٣) احياء علوم الدين المجلد الثانى جـ٧ ص ٢٦ واعلام الموقعين جـ٣ ص٢٨ .

أو النهى لإظهار شعائر الاسلام وتذكير الناس بأمر الدين (١) .

شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

ليس للأمر بالمعروف شروطا خاصة إذا الأمر بالمعروف نصيحة وهداية وذلك جائز فى كل وقت ومناسبة أما النهى عن المنكر وتغييره فله شروط ثلاثة .

أولا : وجود المنكر : والمنكر هو كل معصية أو كل محذور الوقوع فى الشرع ويستوى أن يكون فاعل المنكر مكلفا أو غير مكلف وكذا إن رأى مجنونا يزنى بمجنونة ولا فرق بين الصغيرة والكبيرة فى النهى عن المنكر .

ولكن يجب أن يكون المنكر معلوما دون حاجة للاجتهاد إذ كل ما هو محل للاجتهاد لا محل للنهى عنه أو تغييره فليس للحنفى أن ينكر على شافعى أكله الضب والضبع وليس للشافعى أن ينكر على حنفى نكاحا لا ولى فيه (٢) .

ثانيا : أن يكون المنكر موجودا فى الحال :

بمعنى أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشرا لها وقت النهى والتغيير فإذا إعترض شخص الجانى وقت مباشرة المعصية وكان النهى عنها يقتضى هذا الفعل فهو ناه عن منكر أو مغير المنكر ولا يعتبر فعله جريمة لأن فعله أداء لواجب أما إذا فرغ العاصى من معصيته فليس هناك ما يدعو للنهى عن المنكر أو تغييره وكل مساس بالعاصى بأذى فهو اعتداء لأن عقاب العاصى من حق السلطات العامة .

ثالثا : أن يكون ظاهراً دون تجسس :

فإذا توقف إظهار المنكر على التجسس لم يجز لأن الله حرم التجسس فقال (ولا تجسسوا) لأن للبيوت والأشخاص حرمة لا يجوز انتهاكها قبل أن تظهر المعصية إذ قال الرسول ﷺ لمعاوية « انك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم

---

(١) أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٨٠ .

(٢) احياء علوم الدين للغزالى جـ ٧ ص ٣٧ ، ٣٨ ، أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٨٠

أو كدت تفسدهم يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته ، وقد حدث أن عمر رضى الله عنه تسلق دار رجل فوجده على معصية فأنكر عليه فقال يا أمير المؤمنين ان كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من الثلاثة أوجه فقال ما هى ؟ فقال قال الله تعالى (ولا تجسسوا) وقد تجسست وقال (وآتوا البيوت من أبوابها) وقد تسورت من السطح وقال تعالى (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) وما سلمت فتركه وشرط عليه التوبة وان ترك عمر العاصى دون أن يغير منه شيئا إنما كان لتجسس عمر ودخوله السكن بغير حق وأن المنكر لم يكن ظاهرا ويخلص من ذلك أنه لا ينبغى لإنسان أن يسرق السمع على دار غيره ولا أن يستنشق ليشم رائحة الخمر لكن إذا غلب الظن استمرار شخص بالمعاصى لأمارات دلت على ذلك أو لخبر يغلب على الظن صدقة كشم رائحة الحشيش خارجة من سكن شخص أو سماع استغاثة أو خبر موثوق بالصدق أن رجلا خلا برجل ليقتله فيجوز فى هذه الحالات التجسس والبحث والتفتيش حذرا من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب للمحظورات [1] كما يرى الإمام الغزالى بأنه يجوز دخول المسكن دون إذن إذا ظهرت المعصية من الخارج كظهور رائحة الخمر وأصوات السكارى .

وقد قال ﷺ « من أتى شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فانه من يبد لنا صفحته نقم حد الله تعالى عليه ، وابداء الصفحة يكون تارة بحاسة الشم والسمع .

رابعا : دفع المنكر بأيسر ما يندفع به :

إذ لا يجوز أن يدفع بأكثر مما يندفع به لأن ما زاد على الحاجة يعد جريمة ويجوز أن يدفع بالأقل فى حالة عدم القدرة فإذا كان المنكر يندفع باليد ولم

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢١٨ .

يكن الدافع قادرا على هذه الوسيلة دفعة بلسانه فإن لم يستطع دفعه فبقلبه .

وسائل دفع المنكر :

التعريف وذلك عندما يجهل العاصى أنه يفعل المعصية إذ يجب أن يكون التعريف باللطف لأن إيذاء المسلم محرم .

النهى بالوعظ والنصح باللطف ويلى ذلك التعنيف بمخاطبة العاصى بما فيه ثم يلى ذلك التغيير باليد ويقصد بذلك إزالة المنكر دون معاقبة فاعلة كما يجوز التهديد بالضرب أو القتل إذا كان فاعل المنكر لا يمتنع عن المنكر إلا بقتال قد يؤدى إلى قتله ولا فرق فى ذلك بين ما يتعلق بحقوق الله كالزنا وقطع الطريق وبين ما يتعلق بحقوق الأفراد كالضرب والجرح وقد أقر القانون الوضعى حق الدفاع الشرعى عن نفس الغير وماله بشرط أن يتناسب الدفاع مع الاعتداء وإذا تجاوز الدافع فى النهى عن المنكر أو تغييره فهو مسئول عن تجاوزه كما أنه لا محل للنهى عن المنكر قبل مباشرة المنكر وبعد مباشرته .

سادسا : شخصية المسئولية الجنائية

لا يسأل عن الجرم إلا فاعله ولا يؤخذ أحد بذنب غيره مهما كانت القرابة بينهما وقال تعالى فى الكتاب الكريم (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) الأنعام ١٦٤ (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فاطر ١٨ ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى، النجم ٣٩ (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) فصلت ٤٦ (من عمل سوءاً يجز به) النساء ١٢٣ وقال رسول الله ﷺ ،لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه، كما يقول لرجل وابنه ،أنه لا يجنى عليك ولا تجنى عليه، وذلك المبدأ يطبق بدقة فى الشريعة الإسلامية وليس لذلك المبدأ إلا استثناء واحد هو تحميل العاقلة عصبة القاتل فلا يدخل فيهم الاخوة لأم ولا الزوج ، الدية مع الجانى فى شبه العمد الخطأ على وجه المساواة من غير اجحاف بهم وبه ولكن ليس على الفقراء والمرأة والصبى وزائل العقل شىء من الدية لأن تحميل الفقير فيه اجحاف ولأن المرأة والصبى والمجنون ليسوا من أهل النصرة إلا أنه إذا لم يكن

للجانى عاقلة أو كانت له عاقلة فقيرة فيرى البعض أن يتحمل بيت المال الدية و تحميل الدية للعاقلة تخفيف عن الجناة ورحمة بهم بلاغين وضمان لحق المجنى عليه كى لا يهدر دمه دون مقابل كما أن فيه تضامن و تعاون و ذلك من مكارم الأخلاق التى بعث من أجلها الرسول القائل (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال عندما أتته امرأة وأخبرته أنها زنت وكانت حاملا « اذهبى حتى تضعى حملك ، فلما وضعته أتته فقال لها اذهبى حتى ترضعى ابنك فلما أرضعته أتته فقال لها اذهبى حتى تستودعيه » أى اجعليه عند من يحفظه ، فاستودعته ثم جاءته فأمر بها فأقيم عليها الحد [١] بأن أمر النبى ﷺ لحفر إلى صدرها ثم أمر الناس فرجموها حتى ماتت وتلك الحادثة إن دلت على شىء إنما تدل على أن العقوبة فى الإسلام عقوبة شخصية ولا يتم العدل السماوى إذا أضير الحمل المستكن بذنب أمه لذلك تأجل الحد حتى الوضع والإرضاع وحفظ الرضيع الذى تم فطامه ليت ذلك فحسب بل يفهم منها إلى أى مدى يرعى الإسلام الإنسان ويهتم به ولو كان ابن الزنى إذ الإنسان أغلى من أى شىء وما كان دين الإســـلام إلا خادما للإنسان وكم نرى الزناه وغير الزناه يقتلون أبناءهم خشية العار ذلك لأنهم لم يعلموا أن الله يرزقهم وإياهم وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن الله الزم كل إنسان طائره فى عنقه .

---

(١) الموطأ ص ٣٠٦ .

الإسلام ودستوره فى فكر مشاهير علماء الغرب :ـ

قال جوستاف لوبون والحق لم تعرف الامم فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم وإن أسباب إنتشار الإسلام ترجع إلى سهولته التى كانت سر قوته فهو يخلو مما نراه فى الأديان الاخرى مما يأباه الذوق السليم من التناقضات والغوامض وكل مسلم يستطيع أن يعرف أصول الإسلام فى بضع كلمات سهلة كما أن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب هذه سورية استردت أيام الحكم العربى ما أضاعته من رخاء من زمن طويل وبلغت درجة رفيعة من الرقى فى العهد الاموى والصدر الأول من العهد العباسى وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسى وترك العرب أحراراً فى أمور دينهم واظل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعه والطمأنية وبلغت الصناعه والزراعة درجة رفيعة كما أن العرب المسلمين وضعوا لأنفسهم منهجا تجريبيا عربيا وأقاموا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلافات عن الحضارات التى ظهرت قبلها وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وحضارتهم الإسلامية الجديدة وكان تأثير العرب المسلمون على الغرب عظيما وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوربا .

أما يورث سمث فقال من حسن حظ التاريخ أن محمدا أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجلائل الاعمال فإنه مؤسس لامبراطورية وديانه ومع أنه أمى فقد أتى بكتاب هو آية فى البلاغة ودستور للشرائع والصلاة والدين فى آن واحد . وهو كتاب مقدس إلى هـذا اليوم عند سدس العالم وهو معجزة محمد القوية .

أما جوته فقال أن القرآن سيحافظ على تأثيره إلى الأبد لان تعاليمه عالمية مطابقة للحياة الفكرية .

أما كارليل فقال أن علوية القرآن فى حقيقته العالية حافل بالعدل

والاخلاص والدعوة التى بلغها محمد للعالم حق وحقيقة .

أما الكس لوازون فقال أن محمد خلف العالم كتابا هو آية فى البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس وليس من المسائل العلميه المكتشفه حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

أما جولد تسهير فقال أننا نجد فى الإسلام تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة شخصية كانت أو قبيلة كما نجد فيه عدم الا كتراث فى الأمور الدنيويه والأعراض الزائلة وتجنب الرياء والفخر .

أما لوثرب ستودارد فقال أن الممالك الإسلامية صارت فى القرون الثلاثه الأول من تاريخها أحسن السير فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا إذ عمرت بالمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم وما إنفك الشرق الإسلامى خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصرانى نورا ثم غابت كواكبه وأفلت نجومه وأدركته لياليه السود .

أما سينه بوس المؤرخ الفرنسى فقال أن حضارة الإسلام ليست كالحضارة الرومانية التى أقيمت لأجل الرومان أنفسهم وكانت حضارة أنانية وغرور وطغيان ترعرعت فى أحضان غطرسة الاباطرة والقواد الرومان الجبابرة .

أما المستشرق البرتغالى لويس فيقول أن المستنيرين من البرتغاليين يقدرون الأمة العربية الإسلامية الجيدة حق قدرها ويدرسون مآثرها وأن تاريخ العرب المسلمين حافل بذكائهم وتقدمهم وسيادتهم فى كل العلوم والفنون وأعظم قضاء علمى وأعظم تشريع عادل لم يسبق قط للعالم ان وجد مثله .

أما أرنولد فقال أن سبب إنتشار الإسلام هو الفتوح التى دعت لله وما نادى به الإسلام من مثل عليا ترمى إلى إخوة المؤمنين كافة فى الإسلام كما أن رسالة الإسلام لم تكن مقصورة على بلاد العرب بل للعالم أجمع نصيبا فيه ولما

لم يكن غير إله واحد كذلك لم يكن هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة ولكى تكون الدعوه عامة وتحدث أثرها فى جميع الناس والشعوب نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى بعث بها محمد فى السنة السادسة من الهجرة إلى هرقل قيصر الروم وكسرى فارس وحاكم اليمن والمقوقس حاكم مصر والنجاشى حاكم الحبشة وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام فقد قال تعالى (إن هذا إلا ذكر للعالمين) (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

أما تولستوى فقال مما لا ريب فيه أن النبى محمد من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمه برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية .

أما ليودوروس قال : إن الإسلام دين طبيعى إقتصادى أدبى ولم أذكر شيئا من قوانيننا الطبيعية الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه وبحثت عن تأثير الدين فى نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة وكرما وجمالا .

أما جان ماليا قال إن الإسلام دين سماوى وهو دين حب وعاطفة وشرف وأكثر الأديان تساهلا .

أما برنارد شو فقال : ان أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد وابتدأت تعشق دينه كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا فى العصور الوسطى وسيكون دين محمد هو النظام الذى تؤسس عليه دعائم السلام والسعادة وسيستند على فلسفته فى حل المعضلات وفك المشكلات والعقد وأن كثيرين من مواطنى ومن الاوروبيين يقدسون تعاليم الإسلام ويمكننى أن اؤكد نبوءتى فأقول أن بوادر العصر الإسلامى الاوروبى قريبة لا محال وأنه لا يمضى مائة عام ولا سيما إنجلترا وقد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة .

أما ماسنيون فقال : يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواه صحيحة وأنه له ماضى بديع من تعاون الشعوب وليس من مجتمع آخر له ما للاسلام من ماضى كله توفيق فى جمع كلمه مثل هــــذه الشعوب الكثيرة على بساط المساواه فى الحقوق والواجبات وقد برهنت الطوائف الاسلامية الكبرى فى الهند وافريقيا والهند الشرقيه والصين واليابان على ان الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لاسبيل إلى التوفيق بينهم .

أما فاليرى فقالت : كان الاسلام عجيبا فى سهولته صريحا فى روحه وهذا كان سببا فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت نتيجة ماأصابها من الشك المضنى فى عقائدها الدينيه وهذا أيضا كان ولا زال السبب فى انتشاره المتواصل فى آسيا وافريقيا لنفوذه إلى أرواحهم دون الحـــاجة إلى التطويل فى شرحه والتطاف فى الدعايه له ومما جاء فى كتاب لوراقيشيا ان معجزة الاسلام الكبرى هى القرآن أنه كتاب لاسبيل إلى محاكاته وليس ثمة نمط لهـذا الاسلوب فى الأدب العربى إذ آياته كلها ذات مستوى واحد من البلاغة إننا نقع على العمق والعذوبه معا فكيف يمكن أن يكون الكتاب المعجز من عمل محمد وأن القرآن لا يعقل أن ينبثق من غير الذات التى وسع علمها كل شىء فى السموات والأرض ان القرآن المعجزه الأبدية نصه ظل صافيا غير محرف وأنه ليوقع فى نفس من من يتلوه أو ينصت إليه حسا عميقا من المهابه والخشيه .

أما دكتور : بارديس الفرنسى والذى كلفته الحكومه الفرنسية بترجمه ٦٣ صورة من القرآن فقال أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق جل وعلى وإن أكثر الكتاب اتهاما وشكا قد خضعوا لتأثيره وإن سلطانه على المسلمين البالغ الحد جعل أجانب المبشرين يعتنقون بالإجماع بعدم اثبات حادثه واحده إرتد فيها مسلم عن دينه وأنه من الجهد الضائع غير المثمر ان يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع الذى لم يسمع مثله بلغه أخرى وخاصة باللغة الفرنسية الضيقه .

أما ستانلى بول قال : ان أسلوب القرآن أسلوب يزيد عاطفة وحياه وأن

ألفاظه لاتزال تحمل طابع الحماس والقوه أنها ألفاظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقا وهذا القلب قلب رجل له أخطر الشأن فى تاريخ الانسانية .

أما ولديورانت فقال : إن القرآن يبعث فى النفوس ذات الفطره السليمه أسهل العقائد وأبعدها عن التعقيد بالمراسم والطقوس والوثنيه والكهنوتيه وقد كان له أكبر الفضل لرفع مستوى المسلمين الاخلاقى والثقافى وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية وحضهم على إتباع القواعد الصحيه وحرر عقولهم من الإنحرافات والأوهــــام والظلم والقسوه وحسن أحوال الأرقاء وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامه والعزه واوحد فى المسلمين درجه من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها مثيل فى آية بقعه من بقاع العالم وقد عرف الدين وحدده تحديد الايجد المسيحى ولا اليهودى صحيح العقيده مايمنعه من قبوله كما علم الناس كيف يواجهون الحياة بلا ملل وبعثهم على التوسع توسعا أعجب ماشهد التاريخ

أما جاك استروى : قال لقد أفلس النظامين الرأسمالى والشيوعى فى حــــل المشاكل التى تواجهها البشرية فهل يكون من دور الاسلام فى هذه المره أن يقدم للبشريه البائسه العلاج الذى هى فى أشد الحاجه إليه كما فعل فى الماضى؟ لقد رد على هذا السؤال برنارد شراذ قال إن مأساة العالم ستزول لو ان حاكما كمحمد حكم العالم ويقصد من ذلك أن يظهر الإسلام صافيا خالصا كما جاء به رسوله من غير تحريف وتضليل وأغراض فيملك نفوس أهله فيعملوا وتستقيم الحياه فى ظله .

أما باثورث سمث الانجليزى قال أن القرآن لا مثيل له فى حقيقته وفى كونه مصونا محفوظا .

أما مسترجب قال : الإسلام مازال فى قدرته أن يقدم للانسان خدمه ساميه جليله فليس هناك آية هيئه سواه يمكن أن تنجح نجاحا باهراً فى تأليف الأجناس البشرية المتنافره فى جبهة واحدة أساسها المساواه فإذا ماوضعت منازعات دول

الشرق والغرب موضع الدرس فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع .

أما مايكل هارث فقال فى كتابه الخالدون مائه أعظمهم محمد . إن محمدا هو الوحيد الذى أتم رسالته الدينيه كاملة وتحددت كل أحكامها وآمنت بها شعوب بأسرها فى حياته وأقام إلى جانب الدين دوله جديده ووحد القبائل فى أمة ووضع لها كل أسس حياتها ورسم أمور دنياها ووضعها فى موضع الإنطلاق إلى العالم أيضا فى حياته . إن محمدا هو الوحيد الذى نشأ فى بقعه من الصحراء الجرداء المجرده تماماً من مقومات الحضارة والتقدم ولكنه جعل من البدو البسطاء المتحاربين قوة معنوية هائله قهرت بعد ذلك إمبراطوريات فارس وبيزنطه وروما المتقدمة بما لا يقاس وإن معظم البلاد التى فتحها خلفاؤه استعربت تماما وتغيرت لغة ودينا وقومية من العراق وسوريا إلى آخر الشاطىء الافريقى غربا إلى السودان جنوبا وبقيت أمه واحده تتكلم لسانا واحدا إلى الآن فهناك اليوم وبعد ١٤٠٠ سنه خمسائه مليون مسلم ولكن هناك بينهم مائه وخمسين مليون عربى وهو معيار فى قياس أثر الرسالة أى استمرارها الزمنى وثباتها ماليس له مثيل فى تاريخ الفتح فى العالم .

كذلك لا يوجد نص فى تاريخ الرسالات نقل عن رجل واحد وبقى بحروفه كاملا دون تحوير كل هذا الزمن سوى القرآن الذى نقله محمد الأمر الذى لا ينطبق على التوراه أو الإنجيل .

هكذا نجد إن فتوحات العرب التى بدأت فى القرن السابع الميلادى قد بقيت تلعب دورا هاما فى التاريخ الإنسانى حتى يومنا هذا ومن أجل هـذا النفوذ الدينى والدنيوى وجدت إن محمدا هو صاحب الحق الوحيد فى إن اعتبره صاحب أعظم تأثير على الاطلاق فى التاريخ الإنسانى .

أما ويلز [1] قال الإسلام يخلو من التعقيدات اللاهوتية ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن مظاهر القرابين ومعبدها فهو عقيدة نبويه

---

(١) موجز تاريخ العالم ترجمه عبد العزيز جاويد ص ٣٠٢ .

تماما بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرابين الدمويه كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته وثمه عنصر ثالث يكمن فى إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعا أخوه متساوون تماما أمام الله مهما اختلفت ألوانهم أواصولهم أو مراكزهم .

وقال بتلر . إذ ظهرت سماحة الإسلام وإنسانيته وعدله بمصر لجأ كثير من العقلاء إلى الاسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطأنينته وبساطته وليس من العدل أن يقال أن كل من أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها كما أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة كرهوا المسيحية إذ نقض أصحابها ما أمر به المسيح ونشبت الثورات والحروب بين شيعها وأحزابها

كلمة الختام

لقد جاءت العقوبات الشرعية من لدن عليم بخاطره الأنفس خبير بما تخفى الصدور وتوسوس محيط بكل الهواجس طبيب لكل دنس ومدنس مطهر لكل نجس ومنجس هاد لكل مضلول أبلس للرذيلة مال وتراس ـ ولهوى النفس تنفس ظاهرها فيه القسوة والعذاب وباطنها فيه طهر الألباب واتسمت للناظرين بالشدة لا تعرف مجرما فى الحدود مهما كانت مكانته فتعقبت الجريمة فى كل أسرة وفى كل قبيلة حتى قضت عليها جريمة تلو جريمة ولم يبق للنفوس التى عبدت الجريمة وعشقتها وجعلتها مسلكا ومنهاجا ولم تعرج لغيرها معراجا ولم توقد لسواها سراجا إلا أن تخر ساجدة أمام ذلك العقاب الالهى الصارم ملقية سلاحها معلنة التسليم والاستسلام والطاعة لله والاسلام والخضوع وشيوع السلام [١] ليعيش الجسد والروح فى وئام وليطاق الأمن أجنحته للانام فيظهر دين الله عقيدة ونظام ويتلألأ القرآن قواعد وأحكام لا أساطير واعجاز من كلام ليزيل الرذائل ويقهر الاجرام القتل للقاتل بسرعة الاعدام الرجم للزانى المحصن مدفونا

---

(١) للمؤلف فلسفة التدين الصوفى ص ٥٦

بالرغام الجلد السكير بقسوة الآلام حتى لان عمر أعدل الحكام القطع السارق عدالة وانتقام القتل فى الحرابه ليظل الأمن فى دوام وكذا فى البغى ارساء النظام وصدق برناردشو إذ قال أن محمدا يجب أن يدعى منقذ الانسانية ولو أن رجلا مثله تولى قيادة العالم الحديث لنجح فى حل مشاكله بطريقة تجلب للعالم السلام والسعادة الذين هو فى أشد الحاجة إليهما وماذا قصد الفيلسوف برنارد شو من قوله . . قصد أن رجلا كمحمد فى عدله المطلق وحبه الخالص للانسان لو حكم العالم بشريعة الاسلام المنزهه التى لاتقبل التبديل ولا التغيير لقضى على الجريمة التى أصبحت مشكلة المشاكل وحقق للعالم السلام والسعادة وما أحوج العالم اليوم إلى السلام والسعادة وكيف يتحقق ذلك فى عالم يأكل فيه الكبير الصغير ويتحول الانسان فى كل التجمعات البشرية إلى آلة تخدم النظم المادية التى أحيت فى الفرد جانبه المادى الظلمانى وأهملت بل أنكرت جانبه الروحى النورانى المضيء والذى بدونه يفقد المجتمع حقيقة وجوده الانسانى ويخسر ويضل الطريق إلى السعادة .

يا أمة تسمت بالإسلام كفى فرقة وصراع وأحقاد وخصام ، كفى اختلاف وتشتت متى تعرفى التوحيد بعد التفرق والتعديد متى تدركى الحق وتبصرى الطريق متى تعودى إلى سبيل الرشاد بعد تيه فى سبيل العناد متى تشرق عليك شمس الإله بعد ظلمة زاد فيها الفساد ، متى يا أمة تعرفى قدر نفسك وتسلكى درب ربك متى ستجف أنهار الخمر ويزول السكر ويولى الشر ويعلو الخير ، متى تقدس كلمات الله وتحمى حرماته ويظهر الحلال حلالا فيتبع والحرام حراما فيحارب ويحتقر ، متى تزول النكسات وتقف الصرخات وتنتهى المحن وتولى المآسى والشقاوات وتنقضى المظالم والمنكرات وتسود الإنسانية ويعم العدل ، كل ذلك قريب وغير بعيد إذا اتبع قول الله ونفذ هديه وأعتصم بحبله وخلصت النية وطهر الشكل والجوهر .

[تم بحمد الله]

الفهرس



لقد جاء الإسلام فنظر للإنسان نظرة تعلى من قدره وتمنع كل مايؤدى إلى إذلاله وتحقيره وإهانته أو الانتقاص من كرامته وحريته أو اكراهه فى دينه جاء للانسان فى كل زمان ومكان فكان الإنسان هو وسيلة كل المثل وغاية كل المبادىء والمطلب الأسمى من الحياة .

كتب للمؤلف :
١ ـ فلسفة التدين الصوفى
٢ ـ رسول الإسلام
٣ ـ العبادات فى الإسلام
٤ ـ دعائم الإسلام
٥ ـ الانسانية والعدالة فى الإسلام

تحت الطبع :
٦ ـ المسئولية فى الإسلام
٧ ـ عقد البيع فى القانون الوضعى والشريعة الإسلامية
٨ ـ القرية الظالمة

رقم الايداع ٣٩٢٩ / ٧٩

دار الزينى للطباعة

٨٠ قرش

